محمد الميلي



فرانز فانون
والثورة الجزائرية



محمد الميلي
فرانز فانون والثورة الجزائرية



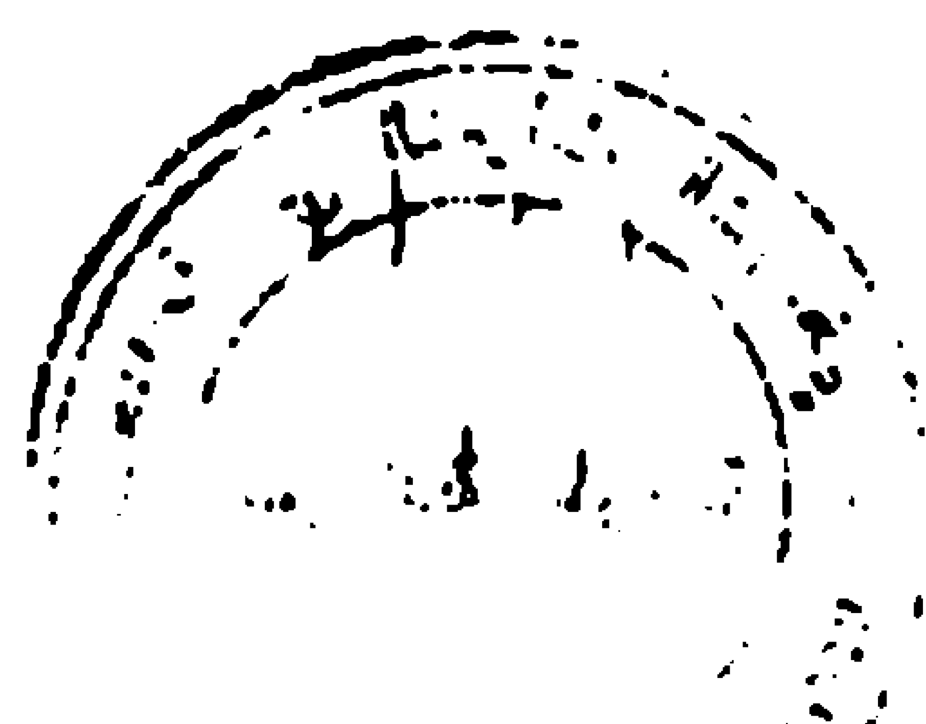


محمد الميلي

فرانز فانون
والثورة الجزائرية



فرانز فانون
والثورة الجزائرية



محمد الميلي

فرانز فانون والثورة الجزائرية



عن الكتاب والمؤلف

بقلم محمد يزيد

كان الاخ محمد ابراهيم الميلي والمرحوم فرانز فانون الذي يتعرض لـه هذا الكتاب بالدرس والتحليل، رفيقي سلاح ابان حرب التحرير . ومن هنا فان الكتابة عن فانون من طرف اخ له تعتبر من اكثر الكتابات صدقا واكثرها قربا لواقع فكر فانون ، لان الاخ الميلي لم يعتمد فقط على ما تركه لنا فانون من كتابات قيمة وانما اعتمد ايضا على ما كان يدور بينهما من نقاش فكري وعقائدي عادة ما يدور بين المناضلين ، وفي فترة كانت الثورة الجزائرية ، ومعها كل ثورات العالم الثالث ، تمر بادق واصعب مراحلها .

لقد اتيح لي التعرف على كل من الاخ الميلي والمرحوم فانون في الوقت الذي كنا جميعا نخوض ضمن اطار جبهة التحرير الوطني نضالا يوميا ضد قوات الاحتلال سواء اكان ذلك النضال على الصعيد السياسي ام على الصعيد الدبلوماسي .

ان ما يزيد هذا الكتاب اهمية ويجعله بمثابة الوثيقة التاريخيـة التي تسجل التيارات الفكرية التي كانت تدور ونيران الثورة المسلحة مـا تـزال مشتعلة ، ان المؤلف تقلد مسؤوليات هامة ايام حرب التحرير الوطنية ولا يزال يتحملها حتى الآن . وبقطع النظر عن ما جاء فيه من آراء فان مجـرد تخصيص الكتاب لفرانز فانون هو بحد ذاته اشادة بروحه في نفس الوقت الذي هو عمل ضروري كان لا بد ان ينجزه احد حتى يعرف الناس فانون من وجهة نظر رفيق نضاله .

لقد شارك فرانز فانون في الثورة الجزائرية وناضل ضمن اطار جبهـة التحرير الوطني وهذا النضال وتلك المشاركة هي التي جعلته يكتشف خفايـا

المشاكل التي يعاني منها العالم الثالث . ثم أنه بفضل الصفة التمثيلية لجبهة التحرير التي كان يتمتع بها استطاع فانون ان يتعرف على التجارب الثورية في افريقيا اولا وفي آسيا واميريكا اللاتينية ثانيا . . .

ان تاثير التجربة النضالية التي اعطاها كفاح الشعب الجزائري للعالم كان لها ابعد الاثر على فكر ومؤلفات فانون . ومما يؤكد هذه الحقيقة ان اجود مؤلفاته السياسية كتبت خلال حرب التحرير الوطنية . لقد كان فرانز فانون واحدا من المناضلين الذين عايشوا الثورة الجزائرية وتطعموا بافكارها واستماتوا من اجلها ، لهذا فهي لم ولن تنساه تماما كما هي لم تنس شهداءها. وما كون شوارع ومؤسسات عامة في الجزائر تحمل الآن اسمه الا احد الدلائل على كون فانون لم يكن ينتمي الى العالم الثالث وحسب ولكنه كان ، وقبل كل شيء ، واحدا من أبناء الثورة الجزائرية .

ان كتاب اخي محمد الميلي الذي خصصه لاخي فانون يعتبر مساهمة جادة للتعريف بجوانب من فكر الفقيد ، كانت مجهولة حتى الآن ، في نفس الوقت الذي سيفتح فيه هذا الكتاب ولا شك باب النقاش واسعا حول مؤلفات الفقيد .

ـ محمد يزيد ـ
بيروت

- ١ -

هذا هو فانون

كان يوما من أيام ربيع ١٩٥٧ لن أنساه • كنـا منهمكين في تحرير عدد جديد من اعداد « المقاومة الجزائرية » ، فجـأة لفت نظري شخص زنجي يدخل علينا ويتقدم لمصافحتنا بحرارة • حيانـا بالفرنسية ، كانت عيناه تلمعان ببريق غريب ، على الرغم من انها كانت أول مرة أرى فيهـا الرجل فقد شعرت بحرارة خاصة في نظرتـه تنبىء عن تلهف شديد لمعرفة كل شيء •

لم يطل المكوث معنا ذلك اليوم• تبادلنا كلمات مقتضبة ثم انصرف• كنت أتهيأ لاستئناف عملي ، عندما قاطعني الأخ عبد الرزاق قائلا :

ـ ألم تعرفه ؟
ـ كلا ، فهذه هي أول مرة أراه فيها •
ـ انه فرانز فانون •

قالها عبد الرزاق وكأنـه قد قال كل شيء مع هذا الاسم • كـان يتصور ان مجرد التلفظ باسمه عبارة عن برنامج كامل ، وفهمت من لهجته انه شخصية معروفة ، لكنني لم أكن قـد سمعت بهـذا الاسم ، فترددت قليلا ثم سألت :

ـ ومن يكون ؟

هنا بدت على عبد الرزاق دهشة غريبة . ان لا آكون قد رأيت الرجل فهذا أمر ممكن وليس بالغريب ، أما ان لا أسمع باسمه فهذا غير معقول .

— ألم تسمع به ؟

— أبداً .

آنئذ ، أعطاني عبد الرزاق معلومات أولية عنه .

انه طبيب نفساني من أصل ماتينيكي ، التحق بصفوف الثورة الجزائرية .

في نفس الاسبوع ، زارنا ثانية في المكتب . عرفنا هذه المرة انه سينضم الى هيئة تحرير « المقاومة الجزائرية » (١) . أحسست في أول اجتماع حضره معنا بنوع من الفرق بين الأفكار التي كان يبديها هو والأفكار التي كان يبديها بقية هيئة التحرير . كان يجيد الحديث عن الاستعمار في المجال النظري ، وكان الذي يهم معظم الاعضاء هو تقديم صورة حية عن معارك جيش التحرير ، عن الحياة اليومية داخل الوطن . وكأنه قد شعر بهذا الفرق ، فدعاني أثر الاجتماع الاول وزميلا آخر الى تناول طعام الغذاء على مائدته ، في المسكن الذي وضعته تحت تصرفه ادارة مستشفى الامراض العقلية بتونس . وهنا لاحظت انه متزوج وله ولد .

رحنا نتبادل اطراف الحديث حول العمل النضالي . كان طلّعة ، يكثر من القاء الاسئلة ، خاصة حول حياة الارياف . واكتشفت انه كان قد قام ، خلال اقامته بالبليدة في الجزائر ، باجراء تحقيقيات عن الحياة الاجتماعية في الريف المحيط بالعاصمة . ورحنا نعطيه صورة عن الريف

الجزائري ، وكنا بقدر ما نشعر بالاعتزاز عندما نعطيه معلومات عن الشعب لا يعرفها ، بقدر ما نشعر بالضآلة عندما يتحدث الينا عن المبادىء الكبرى للثورة . كان واضحا ان الرجل مثقف ثقافة عالية . وأدهشني ذلك من طبيب اخصائي في علم النفس ، فقلت له :

— ان من يسمعك تتحدث يتصور انه امام أديب أو فيلسوف وليس امام طبيب .

ابتسم وقال لي :

— فعلا ، لقد درست الفلسفة وأنا مجاز فيها ، وقد فكرت حينا من الزمن في مواصلة دراستي العليا بالفلسفة لكني فضلت ميدانا عمليا أكثر التصاقا بمشاكل الحياة اليومية .

كان يبدو عليه انه شاب . لكن كيف يعقل ان يكون اخصائيا في علم النفس منذ نحو خمس سنوات ومجازا في الفلسفة وهو ما يزال شابا بعد . وهممت أكثر من مرة أن أسأله عن عمره ، لكني لم اجرؤ .

ذات يوم ، دعينا هو وأنا الى اجتماع مع عضو من أعلى هيئة للثورة آنذاك : لجنة التنسيق والتنفيذ . وأبلغنا ان علينا أن نتهيأ للسفر في ظرف يومين الى المغرب ، فقد تقرر الغاء الطبعات الثلاث للمقاومة الجزائرية وتوحيد اللسان الناطق باسم جبهة التحرير الوطني في « المجاهد » .

بعد يومين كانت الطائرة تقلنا الى روما في الطريق الى المغرب . وجدنا في استقبالنا المرحوم « ايت حسن » . ذهبنا فورا الى الفندق ، ولم أملك نفسي عندما كنت اتأهب لكتابة بطاقة الفندق أن ألقي نظرة على جواز سفر فانون فوجدت انه من مواليد ١٩٢٥ .

لكن ماذا كان فانون يفعل قبل ذلك ؟

في مدينة « فور دي فرانس » ، عاصمة المارتنيك ، كان مولده • انه حفيد أولئك الرقيق الذين حملوا منذ قرون الى جزر الانتيل من أفريقيا • وكانت المارتينيك تشكل مع جزر الانتيل الصغرى منطقة شملتها السيطرة الفرنسية منذ القرن السابع عشر ، ونظرا الى ان السكان الاصليين لهذه الجزر قد أبيدوا لان الأوروبيين كانوا يترفعون عن العمل في مزارع قصب السكر فقد ازدهرت تجارة الرقيق لتزويد المعمرين البيض بما يحتاجونه من أيد عاملة •

ظل ابناء الافارقة الذين استقروا بالجزيرة يعانون من الاضطهاد ، ويقومون من حين لآخر بثورات تقمع بشدة ، ومع قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة وظهور النظريات الاندماجية (٢) توقف ذلك التطور ، وراح السكان يحلمون بالمساواة المطلقة مع الأوروبيين • وبعد انتهاء الحرب العالمية الاولى التي ساهم فيها سكان المارتنيك الى جنب سكان جميع المستعمرات الفرنسية ، اتخذت بعض التدابير تهدف الى ايجاد تقارب سطحي بين وضعية سكان المارتنيك وسكان « الوطن الام » وقد أدى ذلك ، بالاضافة الى محاولة « النخبة » المارتنيكية التنكر لماضيها ولزنوجتها ، الى عرقلة الكفاح الشعبي •

خلال هذه الحقبة من حياة الجزيرة ولد فانون • كان أبوه موظفا بالجمارك ، وكان منصب الموظف في بلد كالمارتنيك يعتبر وضعا امتيازيا بالنسبة للعامل الزراعي •

ومع تردد فانون على المدرسة الفرنسية تعزز نفوره من اللهجة المحلية وانفتحت عيناه على القيم البيضاء ممثلة في ابطال من امثال « فيرساجيتوريكس » و « شارلمان » و « جان دارك » و « لامارتين » •

نفس الشخصيات التي كانت دروس التاريخ الفرنسي في جميع انحاء المستعمرات . تفرض معرفتها على السكان الوطنيين •

وفي خارج المدرسة كان البيض ، وهم بضعة آلاف من بين مائتي الف : يفرضون سيطرتهم على الجزيرة فيحتفظون بمزارعهم على الشياع، ويتزوجون فيما بينهم ، ويتبادلون العون ويحتكرون أرباح صناعة السكر . ويسيطرون على البنوك ومعظم التجارة • لكن على الرغم من وجود ألوان متعددة من التمييز العنصري في جزر الانتيل التابعة للاستعمار الفرنسي ، فقد نشأت ما يمكن ان يسمى « بورجوازية زنجية » ، وكانت هذه تبحث عن الاندماج والذوبان في الاطار الفرنسي أكثر مما تفكر في الاستقلال الوطني •

الى هذه الفئة تنتمي أسرة فانون : فقد تمكن خمسة من بين ثمانية أولاد ـ من ضمنهم فرانز ـ متابعة دراستهم العليا في الجامعات الفرنسية وهو أمر له دلالته في الكشف عن الوضع الاجتماعي لاسرة فانون ، خصوصا اذا عرفنا ان هذه الجزيرة التي تعتبر فرنسية مائة بالمائة ، كانت تعد عام ١٩٧٠ ثلاثين بالمائة من الاميين • فكيف كان الحال في الثلاثينيات عندما كان فانون واخوته يتابعون دراستهم الابتدائية •

وقد أدى تطور هذه البرجوازية المحلية الى وجود نوع من شعور التفوق عند الانتيلي بالنسبة لزنوج المستعمرات الأخرى • وزاد في تعميق الشعور بالفرق بين زنجي المارتنيك والزنجي الافريقي ان الديانات الافريقية التي حملها أسلاف فانون قد أمحت وحلت محلها الشعائر المسيحية ، وكان رجال الدين الكاثوليك في الجزيرة يضعون أنفسهم في خدمة المحتل ولا يسمحون ببروز أي وعي بالشعور القومي • وتعزز موقف هذه البرجوازية مع احتفال باريس في ١٩٣٥ بمرور ثلاثمائة

سنة على دخول الانتيل تحت السيطرة الفرنسية • وتمت تلك الاحتفالات تحت شعار « ذكرى الروابط مع المستعمرات القديمة » التي أعطتها فرنسا أحسن خصال عبقريتها حسب تعبير بوغي [٤] • وهكذا شهدت الجزيرة وخصوصا بعد الحرب العالمية الاولى استقرار حالة سلبية من القبول بالامر الواقع ، حلت محل ضروب الكفاح التي عرفتها في القرن الماضي • وفعلا فان القرن التاسع عشر كان عامرا بالاضطرابات التي تكشف عن وجود رغبة عميقة في التحرر من الاستعمار : ففي ١٨٢٢ جرت اصطدامات دموية في المارتينيك وجرت حوادث عنف في عام ١٨٣٠ • وعندما كانت باريس تتأهب للتوقيع على المرسوم الذي يلغي الرق ، انتشرت الاضطرابات في كامل انحاء الجزيرة •

وتصور السكان ان الغاء الرق في ٢٧ افريل ١٨٤٨ قد وضع حدا لمتاعبهم وانهم ربحوا الى الابد معركة الكرامة • لكن سرعان ما انكشفت الحقيقة : فالاوضاع الاقتصادية لم تتغير ، وظل الزنجي ، رغم تحرره لا يملك من مورد للرزق الا العمل في مزارع السكر ، ونستطيع ان نتصور بسهولة وضعية أولئك العمال الزراعيين في القرن الماضي •

وقد عبر كاتب انتيلي، بوكمان ، عن هذه الوضعية بقوله فيمسرحية أهداها الى ضحايا القمع :

« صديقتي العزيزة ، لنحتفظ ببرودة أعصابنا ! الحرية ؟ هل تملأ بطنا ضامرا ؟ ••• سترين ••• ان المعتقين (بفتح التاء) سيضعون بانفسهم قيودا جديدة لأيديهم ••• قيودا أقل ظهورا من القيود القديمة كلها أشد وطأة •• لم يعد هناك خوف من التمردات • آه يحيا الغاء الرق»[٥] •

ورغم ذلك لم تنقطع الاضطرابات : فقد اندلعت حوادث عام ١٨٧٠ في جنوب المارتنيك وأضرمت النار في أربعين مزرعة ، وكان ذلك مظهرا

من مظاهر الثورة على التطور الجديد الذي حدث في المجال الاقتصادي مع تحول زراعة السكر التقليدية الى زراعة أحدث ذات معامل .

الا ان ذكريات هذا الكفاح المرير أصبحت باهتة مع صعود موجة المستفيدين من الاندماج . بل ان فئة الموظفين المارتينيكيين (التي تنتمي اليها أسرة فانون) كانت تتحدث عن زنوج أفريقيا بنفس اللهجة التي يتحدث بها الاوروبيون . كان الانتيلي يعتقد انه متفوق على الافريقي ، بل هو كان يتأكد ، زيادة على ذلك ، من وجود فرق جوهري بين الافريقي والانتيلي (٦) . كان التقليد المعمول به في فرنسا عند تقديم شخص انتيلي في مجتمع باريسي راق ، هو التنصيص على انه « انتيلي من أصل مارتنيكي » (٧) . وكان الافريقي في نظر المارتنيكيين هو الممثل الحقيقي للعرق الزنجي ، واذا حدث ان معمرا طلب مجهودا كبيرا من عامل ماتنيكي ، فان هذا كثيرا ما يرد عليه قائلا : « اذا أردت زنجيا فابحث عنه في افريقيا » مما يدل على ان العبيد والذين يقومون بالاشغال الشاقة يؤتى بهم من هناك (٨) .



ذلك هو الوضع الذي كان خلاله فانون يواصل فيه دراسته الابتدائية ، وجزءا من دراسته الثانوية . لكن هذا الوضع دخل عليه تغيير مع قيام الحرب العالمية بفعل وجود عدة عوامل ، وصفها فانون بشيء من الاسهاب في مقال نشر في مجلة « اسبري » الفرنسية عام ١٩٥٥ . ونظرا الى ان هذا المقال يتناول بالتحليل حقبة كانت حاسمة في توجيه فانون سياسيا وفكريا ، فاننا نستطيع ان نعتبره لونا من السيرة الذاتية ، كتبها فانون للكشف عن تطوره الفكري الى عام ١٩٥٥ . فلنقرأ ما كتبه فانون بهذا الصدد :

« ... في ١٩٣٩ : لم يكن هناك أي أحد : في الانتيل ، يعتبر نفسه زنجيا أو يعلن زنجيته . ولا يفعل ذلك الا عندما تضطره علاقته مع لونه . ولكننا نستطيع ان نؤكد بأنه لم يحدث الى ١٩٤٩ أي اعلان تلقائي للزنوجة .

في هذا الظرف جدت ثلاثة أحداث :

أولا وصول « سيزير » . فلأول مرة نشهد استاذ ليسي ، أي انسانا جديرا بالاحترام يقول بكل بساطة للمجتمع الانتيلي : « انه جميل وطيب أن يكون الانسان زنجيا » . حقا انها فضيحة . وقيل آنذاك انه مجنون بعض الشيء ، وكان زملاؤه في الدراسة يسهبون في اعطاء التفاصيل عن هذا المرض المزعوم .

وفعلا ، فأي شيء أكثر عيبا من أن نرى رجلا مثقفا : مجازا ، أي يفهم عدة أشياء من ضمنها ان « الزنوجة شقاء » ، يعلن ان جلدته جميلة وان « الكوة السوداء الكبرى » مصدر حقيقة ؟ لا الزنوج ولا الهجناء فهموا هذا الهذيان . لم يفهمه الهجناء لانهم استطاعوا ان يهربوا من الظلام ، ولم يفهمه الزنوج لانهم كانوا يطمحون الى الخروج من الليل . ان قرنين من الحقائق البيضاء تؤكد خطأ هذا الرجل . لا بد أن يكون مجنونا ، لانه ليس ممكنا ان يكون على حق .

وبعد ان هدأ الانفعال ، بدا ان كل شيء يستعيد مجراه الاول ، وكان سيزير على وشك ان يظهر خطؤه عندما وقعت الحادثة الثانية ، وأعني بذلك الهزيمة الفرنسية . ان انهزام فرنسا ، كان يعني من بعض الوجوه ، مشاهدة الانتيلي لموت الأب . كان من الممكن أن يعيش الانتيلي هذه الهزيمة الوطنية كما عاشها الوطن الأم ، لكن جزءا هاما من

الاسطول الفرنسي ظل محصورا في الانتيل طيلة سنوات الاحتلال الالماني الاربع .

قبل ١٩٣٩ ، كان يوجد بالمارتنيك نحو ألفي أوروبي . كانت لهؤلاء وظائف محددة ، وكانوا مندمجين في الحياة الاجتماعية ، يهتمون باقتصاد البلاد ، لكن مدينة فور دي فرانس فقط غشتها بين عشية وضحاها موجة عشرف آلاف أوروبي لهم عقلية عنصرية مؤكدة ، لكنها آنئذ كانت خفية ، وأعني بذلك ان البحارة الفرنسيين لم تكن لديهم الفرصة خلال الايام الاولى كي يعربوا عن أفكارهم العنصرية ، لكن الاربع سنوات التي اضطروا خلالها أن يعيشوا منغلقين على أنفسهم ، دون نشاط ، نهبا للقلق عندما يفكرون في ذويهم الذين تركوهم بفرنسا ، كل ذلك أدى بهم الى أن يقذفوا بقناع هو في الواقع سطحي ، وان يسلكوا سلوك « عنصريين حقيقيين » .

يضاف الى ذلك ان الاقتصاد الانتيلي تلقى ضربة شديدة : لانه كان لا بد من العثور بسرعة على ما يضمن تغذية عشرة آلاف شخص ، في حين ان أي استيراد كان مستحيلا وزيادة على ذلك تمكن عدة بحارة وعسكريين من استقدام نسائهم وأولادهم الذين كان لا بد من ايوائهم . وعرفت المارتينيك أزمة السكن بعد أزمتها الاقتصادية ، وأعتبر المارتينيكيون ان أولئك العنصريين البيض هم المسؤولون عن ذلك . وأصبح الانتيلي يشك في قيمه أمام هؤلاء الرجال الذين كانوا يحتقرونه . كان الانتيلي يقوم بتجربته الميتافيزيقية الاولى .

ثم كانت فرنسا الحرة . كان دي غول يتحدث من لندن عن الخيانة ، عن العسكريين الذين سلموا السيف قبل ان يخرجوه من الغمد . وأقنع

ذلك الانتيليين بان فرنسا ، فرنسا التي يتصورونها لـم تخسر الحرب ، لكن الخونة هم الذين باعوها ...

... كان الانتيليون يعتبرون ان فرنسا البحارة هي فرنسا الشريرة وان النشيد الوطني الذي يعزفه البحارة ليس هو نشيدهم ، ولا يجوز ان ننسى ان هؤلاء العسكريين عنصريون في حين ليس هناك من يشك في ان الفرنسي الحقيقي ليس عنصريا ، أي انه لا يعتبر الانتيلي زنجيا . ومـا دام هؤلاء العسكريون يعتبرون الانتيلي زنجيـا فلا شك انهـم ليسوا فرنسيين حقيقيين . من يدري ، لعلهم المان ! وفعلا فقد أصبح كل بحـار فرنسي يعتبر المانيا . لكن النتيجة التي تهمنا هي التالية : امام عشرة آلاف عنصري وجد الانتيلي نفسه مجبرا على الدفاع عن نفسه . ودون سيزير لم يكن سهلا . الا ان سيزير كان هنا ، وصدح الجميع معه بتلك الاغنية التي كانت تبدو فظيعة : ما أجمل وما أطيب أن يكون الانسان زنجيا .

... في ١٩٤٣ تعب الانتيليون من ذلك التميز العنصري الذي لـم يكونوا متعودين عليه ، وقد أنهكهم الجوع فراحوا ، وهم الذين ألفـوا بالأمس العيش داخل كتل منغلقـة اجتماعيا ، يحطمون جميـع الحواجز ويتفقون على بعض الأمور ، من بينها ان هؤلاء الالمان قد تجاوزوا الحدود ، فانتزعوا بمساندة الجيش المحلي ، الانضمام الى فرنسا الحرة ، واضطر الاميرال روبير « الالماني هو الآخر » ان يتنازل .

هنا يتم الحادث الثالث ... » .

« ... اذن فقد غير الانتيلي ، بعد ١٩٤٥ القيـم التي كان يتمسك بها ، فبينما كانت قبل ١٩٣٩ تتركز نظراته على أوروبا البيضاء ، وبينمـا كان الخير في نظره هو الهروب خارج لونه ، اكتشف في ١٩٤٥ انه أسود ، بل وأصبح يتطلع نحو أفريقيا البعيدة . كان الانتيلي قبل ١٩٤٥ يعمـل دائما على التذكير بانه ليس زنجيا ، وابتداء من ١٩٤٥ أصبـح الانتيلي بفرنسا يعمل دائما على التذكير بانه زنجي » (٩) .

فانون هنا انما يقص حكايته وتطور أحاسيسه، ولا شك انه لم يكن وحده الذي أحس بهذا التغيير ، ولهذا سمح لنفسه بتعميم تجربته الذاتية على جزيرة المارتينيك وجزر الانتيل . ان كل من يعرف فانــون جيــدا يكون قد لاحظ من غير شك حساسيته المرهفة ، ولست أشك في أن تلك الحساسية البالغة هي التي دفعته الى ان يؤكد ، في وجه التمييز العنصري الصارخ الذي ظهر بالمارتنيك مع سقوط باريس ، زنوجته ويصرخ بهـا في وجه البيض الذين توهم ، ذات يوم ، انه مثلهم تماما .

كان اكتشاف الزنوجة بالنسبة لفانون بداية لعهد جديد . ونظـرا لكونه ميالا الى العمل ، فهو لم يكتف باتخاذ موقف نظري عاطفي لتأكيد زنوجته ، بل راح يفكر في وسيلة للخروج من المارتنيك والالتحاق بقوات الحلفاء ، اذ يجب ان يعطي درسا لهؤلاء البيض العنصريين الذيــن تجرأوا على النيل من احساسه. وفعلا فقد التحق بالدومنيك في نهاية ١٩٤٣ (١٠) . هل كان ذلك بدافع وطني أو حضاري ، كما يفهم من اشارته لهذه النقطة في « بشرة سوداء أقنعة بيضاء » حيث أكــد انه التحــق بفرنسا الحــرة استجابة لنداء الواجب والضمير بوصفــه فرنسيا (١١) ؟ أم هل كان ذلك اشباعا لغرض شخصي وعائلي مسايرة لتيار محلي شمــل أسرته فيمـا شمل ؟ كما تقول رينات زهار ؟

أعتقد ان مثال فانون « انتنييون وافارقة » بالاضافة الى الأحــداث التي عرفتها المارتنيك تقدم لنا الاجابة عن ذلك . فنجاح الجزيرة في التغلب على العناصر العسكرية الفرنسية الموالية لحكومة فيشي ، يدل على وجود تيار محلي قوي يساند « فرنسا الحرة » . وبقطع النظر عن الذين باشروا التنظيم الذي أسفر عن هذا التحول ،وعن ظروف الحصار الاميركي الذي ساعد على ذلك ، فان وقوعه يكشف عن وجود عاطفة قوية لدى المحليين نحو حركة دي غول . كما ان التحليل الذي يقدمه لنا فانون ، الذي كان

قد عاش هذه الأحداث في سن يكون صاحبها عادة متنبها لتسجيل كل ما يحدث ، يسهم في اعطاء تفسير مقنع ، خصوصا مع ما هو معروف عن فانون من دقة الملاحظة ورهافة الحس • فسواء اتفقنا مع فانون حول التأويل الذي يعطيه للاحداث أم لم تتفق ، فالذي لا شك فيه ان فانون الذي انضم لقوات الحلفاء والذي شاهد تحول مسقط رأسه الى المعسكر الديغولي ، بحيث عاد الى المارتنيك من جديد ـ بعد ان كان قد التحق بالدومنيك ـ وتجند في الجيش الفرنسي متوجها عام ١٩٤٤ الى شمال افريقيا ـ لا شك ان فانون هذا بعد اكتشاف زنوجته أصبح أكثر تطلعا ـ كما يؤكد ذلك هو ـ الى أصوله الافريقية البعيدة •

وكما يحدث عادة عندما تتهدم المفاهيم والنظريات التي يتعود عليها الانسان ، راح فانون يتطلع الى أفريقيا ، وقد وضع فيها كل آماله ، وعزز ذلك التطلع المشحون بعظام الآمال ، تلك المغامرة التي أقدم عليها ، حيث كان يتابع دروسا عسكرية في بجاية (الجزائر) تؤهله ضابطا •

وباشر مهمته الجديدة في صفوف الجيش الفرنسي الى أن أصيب بجراح في معارك قرب الحدود السويسرية ، وعند نهاية الحرب العالمية الثانية كان فانون موجودا بالمانيا • ثم غادرها عائدا الى المارتنيك ليسهم في حملة انتخابية تهدف الى انجاح ايمي سيزير ضمن قائمة المرشحين الشيوعيين لاول مجلس وطني للجمهورية الفرنسية الرابعة [١٢] •

كان فانون اذن منطقيا مع نفسه : فاذا كان سيزير هو الذي أكد ـ في وقت كان الجميع مقتنعين بعكس ذلك ـ جمال الزنوجية والاعتزاز بها ، واذا كان ذلك هو الرد الطبيعي على رفض المحيط الابيض حتى للزنوج الذين كانوا يعتبرون أنفسهم فرنسيين، فلا بد من دعم ايمي سيزير في تلك المرحلة الانتخابية •

وكون سيزير من مرشحي الحـزب الشيوعي يكشف لنـا في نفس الوقت عن طبيعة الميـول السياسية لفانون في هذه المرحلـة • وهو نفسه يؤكد لنا ذلك في مقال « اتيليبيون وأفارقة » عنـدما يبدي قناعتـه بأن الاحداث التي عرفتها المارتنيك في ١٩٤٣ ضد ممثلي فيشي « كانت نتيجة طبيعية لميلاد البروليتاريا » (١٣) • ففانون عام ١٩٤٥ يتميز خطه الفكـري بأمرين : القناعة بوجـود بروليتاريا في الانتيل ، والتطلـع الى الاصول الافريقية البعيدة • وهذا الخط يشتمل على نوع من التناقض : فالاعتقاد بوجود طبقة بروليتاريا ، ومسايرة تحليـل الشيوعيين لذلك ــ وكانـوا يستمدون تعليماتهم من الحزب الشيوعي الفرنسي ــ يعني الأخذ بنظرية الصراع الطبقي الذي يتجاوز الحدود المحلية والاقليمية ، أي ان الحل في هذه الحالة لمشاكل الانتيليين هو خوض صراع طبقي الى جنب البروليتاريا الفرنسية •

لكن التطلع الى الأصول الافريقية البعيدة ووضع كل الآمال في هذا التطلع ، يعني البحث عن حل في اطار أفريقي ، وذاتية افريقية ــ زنجيـة متميزة عن الاطار الفرنسي • فلصالح اية جهة يمكن أن يحل التنـاقض في التصور الفانوني ؟

ان الانتيليين الذين توجهوا بآمالهم الى أفريقيا، اصطدموا بالافارقة يرفضونهم لقد قالوا لهم ما معناه : نحن أبناء أفريقيا الحقيقيين ، لاننـا كدحنا فوق أرضها ، واستعبدنا على متنها ، أما أنتم فقد خنتم أفريقيا ، لانكم هربتم منها وعشتم بعيدا عن أرضها ، وكانت نتيجة ذلك ، حسبمـا يشرحه فانون في مقال «اتيليبيون وأفارقة»ان أصبح الانتيليبيون متحمسين للزنوجة ، متعلقين بها ، فصاروا بعد ان عاشوا « الخطأ الابيض » متعلقين « بالسراب الآسود » (١٤) •

لكن فانـون الـذي تحصل ــ بعـد البكالوريا ــ على منحـة لاتمام

دراسته العليا في فرنسا نظرا للخدمات التي قدمها في الحرب ، أصبح محتكا أكثر من أي وقت مضى بالثقافة الفرنسية . لقد انخرط في كلية الطب بمدينة ليون ، في نفس الوقت الذي كان يتابع فيه دراسة الفلسفة : فيقرأ كيركجارد وهيغل وماركس ولينين وهيدجر وسارتر الخ ... وفي نفس الوقت الذي كان يتابع فيه هذه الدراسة ، كان العالم من حول فانون يواجه تغييرات هامة : ففي محيطه المباشر ، فرنسا ، كانت القوى التقدمية تمر بفترة تقلص وتعرية في الآن نفسه : فبعد مجازر سطيف وقالمة وخراطة بالجزائر والتي تتحمل مسؤوليتها حكومة كان اليسار ممثلا فيها ، ها هي عمليات القمع تنصب على العمال . وفي المحيط الاوروبي ، ها هي الرجعية تسترجع مكانتها في المانيا الغربية ، وها هي الحرب الباردة تأتي في الوقت المناسب لتزييف المعركة بين قوى التقدم وقوى الاحتكارات، وتجعلها تنغلق في تصنيفات لا تفيد منها الجماهير .

وفي المحيط العالمي ، ها هي بوادر التحرر تظهر في الافق : ففيتنام تخوض غمار حرب غير متكافئة ، لكنها مع ذلك تهز العملاق الاستعماري. وفي المستعمرات الفرنسية بافريقيا تظهر سياسة الادماج على حقيقتها : فكائن المستعمرات لا يمكن ان يرتفع الى مستوى الفرنسي الحق ، اعتبارا وحقوقا .

امام هذه التقلبات ، كان فانون ممزقا بين ايمانه بالمثل الانسانية المجردة ، وبين وضعه كفرنسي ـ زنجي . فراح يبحث ، واعتقد انه وجد مطلبه بالقرب من جماعات المثقفين في دوائر اليسار : التي كانت تجتمع حول «العصور الحديثة» لسارتر أو مجلة «الفكر Esprit »التي يشرف عليها مونيي ، أو مجلة Présence Africaine (الحضور الافريقي) التي أنشأها ألان ديوب . ونتيجة لتأثير تلك التيارات الفلسفية والسياسية المختلفة في فكره الغض ، تخلى فانون عن « السراب الأسود » وراح يبحث

عن حل لمشكلته : مشكلة الزنوج ، في الاطار الفرنسي ، بخوض الكفاح الى جانب البروليتاريا الفرنسية ، على صعيد اليسار الفرنسي ، وكانت حصيلة هذا البحث هي كتابه « بشرة سوداء ، أقنعة بيضاء » .

لكن ذلك لم يصرفه تماما عن التوجه نحو افريقيا : فقد أنهى دراسته الطبية في نهاية ١٩٥١ ؛ وبعد زيارة الى المارتنيك ، عاد الى فرنسا حيث اشتغل في مصحة مع الاسباني ، الدكتور توسكفيل (١٥) الذي أفاده في ميدان العلاج الاجتماعي . وأثر زواجه من فرنسية ، طلب من سانغور منصبا في مستشفى أفريقي . لكن سانغور لم يجبه ، فقبل آنذاك بعرض من الولاية العامة للجزائر ، والتحق بمستشفى الامراض العقلية فيالبليدة، عام ١٩٥٣ ، الذي يعتبر أهم مستشفى من نوعه في أفريقيا .

هناك كان يشرف على قسم يوجد به مائة وخمس وستون اوروبيا ومائتا جزائري ، وحاول تطبيق طريقة توسكفيل في العلاج الاجتماعي . اصطدم بصعوبات جمة لأن الأساليب التي جربت مع أوروبيين لا يمكن ان تنجح هي نفسها مع مرضى جزائريين تختلف بيئتهم الاجتماعية عن البيئة الاوروبية . وشيئا فشيئا اكتشف فانون ان هذا الاختلاف يرجع الى عوامل وأوضاع سياسية ، كما اكتشف عوامل الجنون التي ترجع الى الوضع السياسي للسكان المحليين ، أي أصناف المرض العقلي التي تسبب فيها الاستعمار .

وليس من المستبعد أن تكون تجربة فانون كطبيب نفسي فيالجزائر وخاصة بعد دراسته لحالات المرض بعد قيام الثورة المسلحة ، قد كشفت له عن انسداد الطريق الفرنسي بالنسبة لحل المشاكل المتولدة عن الاستعمار . وقد استخلص النتيجة من ذلك ، فكان انضمامه الى الثورة الجزائرية .



بعد انضمام فانون للثورة الجزائرية ، كان يتابع نشاطه الفكري على صعيدين مختلفين : فكان يواصل في نطاق اختصاصه دراسته للحالات الهامة ، كما كان بوصفه سياسيا ومناضلا ملتزما ، يعمل على توسيع ثقافته السياسية وتعميقها .

وعندما تفرغ فانون تفرغا كليا للعمل في صحافة الثورة — وهي الأشهر التي قضاها في تطوان ، ضمن هيئة تحرير « المجاهد » : بعيدا عن كل اتصال مع الخارج أو مع المهنة ، وبعيدا عن أسرته التي بقيت بتونس — كانت معظم أوقات فانون موزعة بين القراءة والكتابة . وعلى الرغم من ان هذا التفرغ الكامل كان يسمح بأخذ نصيب وافر من الراحة ، فقد كان يرفض ذلك ، كان لا ينام الا ساعات قلائل نادرا ما تتجاوز الخمس . وكان يقسم قراءته بين الكتب السياسية وكتب الطب النفسي ، وقد شاهدته مرة يقرأ كتابا بالاسبانية قال لي انه لعالم اسباني كبير في الطب ، قد يكون هو الدكتور توسكفيل التي تذكر المراجع انه تأثر به .

خلال هذه الفترة ، نادرا ما كان يغادر مكان العمل ، الذي كان في نفس الوقت هو مكان الأكل والنوم . نادرا ما كان يخرج الى الشارع لاحتساء قهوة أو التفرج على مكتبة .

وفي أغلب الأيام ، كانت هيئة التحرير تجتمع بعد الظهر لدراسة بعض النصوص الثورية ، التي تساعد على تبين الطريق وعلى تزويد الفكر بالأمل : فلا ينبغي أن ننسى بأن تلك الفترة — صيف ١٩٥٧ — كانت تبدو فترة منسدة الآفاق : فالحل السياسي ميئوس منه ، والاستعمار الفرنسي كان يتأهب لتحويل الجزائر الى معسكر اعتقال ضخم ، عن طريق اقامة الخطوط المكهربة على حدود الجزائر الشرقية والغربية ، في نفس الوقت الذي كان يسعى فيه الى تفسيخ التوتر الثوري في أقطار أفريقيا السوداء ، وكسبها الى جانبه ضد الثورة الجزائرية .

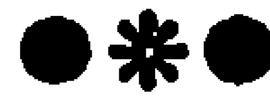
خلال تلك الجلسات كانت المناقشات كثيرا ما تخرج عن موضوع النصوص ، لتتناول قضية معينة أو ظاهرة محددة أو مسألة تاريخية . وكان فانون كثير القاء الاسئلة حولما لا يعرفه من دقائق الحياة الاجتماعية في الجزائر ، وحول المسائل التاريخية التي لم يكن قد قرأ عنها شيئا . وعندما لا يساهم في النقاش ، كان يتتبع ما يقال بعناية ظاهرة . وقد سجل كل الذين عرفوه آنذاك انه كان يتحمس في كلامه دفاعا عن فكرة أو دحضا لموقف . ونظرا الى ان أعضاء هيئة التحرير كانوا متأثرين بثقافات مختلفة ، فكثيرا ما كان يحتد النقاش حول مواضيع حساسة مثل الوحدة العربية أو دور الاسلام في حركة التحرير أو حول تصور مستقبل الجزائر المستقلة .

وسواء اتفقت وجهات النظر أو اختلفت ، فقد كان فانون من بين الذين فرضوا أنفسهم ، بفضل عمق تحليله وسعة أفقه ودقة تفريعاته ، وبتفضيله للسماع على الكلام عندما يتناول الحديث موضوعا لا يعرفه أو يعرف عنه القليل .

في هذا الظرف انعقد اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية (اوت ١٩٥٧) وفي انتظار مقررات ذلك الاجتماع تكشف جانب آخر من فانون : كان لا يستطيع ان يخفي لهفته على معرفة ما يكون قد أتخذ من قرارات . وكان واضحا ، من تلك اللهفة ، ان فانون كان يعتبر نفسه معنيا بكل ما يتصل بالثورة الجزائرية وما يصدر عنها . لم يكن يعتبر نفسه « مرتزق قلم » أو « طابخ أفكار » بل كان يضع نفسه على صعيد واحد مع المناضلين الجزائريين، مهما اختلفت مستوياتهم الفكرية ومواقعهم من المعركة . ويبدو ان الفضول العلمي قد شحذ عنده ما عرف عنه من دقة الملاحظة ، وكان يهتم بكل قادم من الجبهة وكان يود الاطلاع على جميع التفاصيل التي يمكن أن تكون لدى مناضل .

ومع عودة « المجاهد » الى تونس (اكتوبر ١٩٥٧) عاد فانون الى التوزع بين عمله في صحافة الثورة ومهنته في مستشفيات تونس . وقد أمدته مهنته بملاحظات مهمة استخلصها من تتبعه لحالات المجاهدين الجزائريين الذين كانوا يحالون ـ بعد اصاباتهم ـ على المستشفيات التونسية .

وقد كانت حصيلة هذه الفترة هي كتاب « الثورة الجزائرية في عامها الخامس » ومعظمه مقالات « من أجل ثورة أفريقيا » .



كانت الثورة الجزائرية عندما انضم اليها فانون قد تجاوزت النطاق المحلي ، وأصبحت موضوع تعاليق السياسة والديبلوماسية في انحاء العالم ، وفي مقدمته البلدان الافريقية . وقد ظهر اهتمام الافارقة بهذه الثورة في أشكال مختلفة ، تمثلت أحيانا في قيام بعض المناضلين بالاتصال بقيادة جيش التحرير يطلبون منها المساعدة حتى يتمكنوا من الاعداد للثورة المسلحة في بلادهم .

وقد لمس فانون خلال اشتغاله بالمجاهد هذا الجانب في الثورة الجزائرية وهو انفتاحها على أفريقيا . ولا شك ان ذلك قد أعاد الى ذهنه من جديد تلك المشكلة التي كانت واجهته في خضم الحرب العالمية الثانية عندما عرف حقيقة « الخطأ الأبيض الأكبر » وراح يبحث عن حل بديل في الاصول الافريقية البعيدة .

ومع تطور الكفاح المسلح في الجزائر ، وتطور رد الفعل الاستعماري ضده ، تأكدت حقيقتان : التضامن الفعلي بين ألوان الاستعمار ومراكزه ، وضرورة التضامن بين الشعوب المضطهدة .

وفي الوقت الذي بدأت فيه بعض البلاد الافريقية تفكر في استلهام التجربة الجزائرية لخوض غمار معركة مسلحة، كانت الاجهزة الاستعمارية الفرنسية تشتغل ليل نهار لفصم التضامن الطبيعي لافريقيا السوداء مع الجزائر ، وتخيط مخططات الاستعمار الجديد لتحل محل الاستعمار القديم في أفريقيا .

في غمرة هذا الصراع بين الثورة الجزائرية من جهة ، وبين الاستعمار الفرنسي بشكليه القديم والجديد من جهة أخرى ، بدأت تتحدد معالم الطريق الافريقية للتحرر والوحدة .

ووجد فانون ان ما كان يبدو له بالامس خيالا أو حلما دخل في حيز الامكان . وقد تأكد من ذلك عندما عهدت اليه الثورة الجزائرية بمهام معينة في أقطار مختلفة من أفريقيا السوداء .

وشيئا فشيئا بدأ يتضح تصور فانون لنهضة أفريقيا وانبعاثها وراح يستلهم ما عرفه من حاضر الثورة الجزائرية وما سمعه أو قرأه عن ماضي الحركة الوطنية في الجزائر ، ليفهم على ضوئه التناقضات التي كانت تهز الاقطار الافريقية .

تم أول اتصال لفانون بافريقيا السوداء ، في نطاق الثورة الجزائرية في نهاية ١٩٥٨ عندما عين عضوا ضمن الوفد الجزائري الى المؤتمر الافريقي المنعقد في عاصمة غانا . هناك تعرف على نكروما وعلى لوممبا الذي كان يمثل الحركة الوطنية الكونغولية ، كما تعرف على فليكس موميي رئيس اتحاد سكان الكامرون ، كما اتصل بممثلي حركة استقلال كينيا وبروبير توهولدن من انغولا .

وفي عام ١٩٦٠ أتيح له الاتصال من جديد بممثلي الحركات الافريقية ضمن مؤتمر الشعوب الافريقية المستقلة .

هناك كان فانون يتمتع بمكانة خاصة : « ألم يكن يمثل الثوري الملتزم ، والمثقف « الفرنسي » الذي قطع كل اتصال مع الوطن الأم ليكافح في الخطوط الامامية للجبهة المناهضة للاستعمار ؟ أليس زنجيا متحدرا من عبيد اختطفوا من أفريقيا ثم عاد الى أفريقيا كمناضل يكافح من أجل الاستقلال ... لقد كان يمثل الروابط بين أفريقيا جنوب الصحراء وأفريقيا شمال الصحراء » [١٦] .

وفي خضم هذه المهام تبين فانون الميدان الواسع للمعركة ولمس تداخلاتها ، وتأكد انه يشمل مجموع العالم الثالث، حيث يعيش المسحوقون في هذه الارض ، مواجهين كل القوى الاستعمارية والامبريالية في العالم.

وراح فانون يتحدث في مختلف مؤتمرات افريقيا وانديتها بوصفه يعبر عن وجهة نظر الديبلوماسية الجزائرية . ولم يكن خلال ذلك كله ، يتوقف عن تدوين ملاحظاته ، على أمل أن تكون مادة لعمل فكري أكثر منهجية . لكن المرض لم يمكنه من اتمام عمله كما كان يريد ، ومن التأكد من صحة كل ما سجله . لقد بدأ سباقه مع الموت .. لا بد أن يقذف بأفكاره على الورق بسرعة قبل ان يلفظ نفسه الأخير ... انه ما انفك يشعر بان حياته يجب ان تكون وقفا على خدمة قضية ، فليكن آخر ما يكتبه موجها الى العالم الثالث ، حتى يفيد منه « معذبو الأرض » .

---

(١) المقصود بها هي الطبعة التي كانت تصدر بتونس . فقد كانت هناك طبعتان اخريان ، واحدة تصدر بفرنسا والاخرى تصدر بالمغرب . وكانت طبعة المغرب تصدر مزدوجة : نصف العدد

بالفرنسية ونصفه بالعربية . وطبعة تصدر مزدوجة ، لكن العدد العربي منفصل عن العدد الفرنسي . أما طبعة فرنسا فكانت تصدر بالفرنسية .

(٢) بيير بوفيي . فانون ـ ص ١٥ ـ المطبوعات الجامعية . باريس ١٩٧١ .
(٣) نفسه . ص ١٦ .
(٤) نفسه . ص ١٨ .
(٥) نفسه . ص ١٥ .
(٦) فانون من اجل ثورة افريقيا . الطبعة الفرنسية . ص ٣٠ .
(٧) نفسه .
(٨) نفسه . ص ٣١ .
(٩) نفسه . ص ٣١ وما بعدها .
(١٠) رينات زهار . انتاج فانون . ص ٥ .
(١١) فانون ـ بشرة سوداء اقنعة بيضاء . ص ١٨٤ .
(١٢) رينات زهار . ص ٦ .
(١٣) فانون . من اجل ثورة افريقيا . ص ٣٣ .
(١٤) نفسه . ص ٣٥ .
(١٥) رينات زهار . ص ٧ .
(١٦) نفسه . ص ١١ .

- ٢ -

فانون ... الغرب

طيلة عشرين سنة ، تردد اسم فانون ، بصورة ما انفكت تتوسع ، فاذا كان اول كتاب له ظهر عام ١٩٥٢ ، قد مكنه من تبوأ مكانة محترمة بين المثقفين الفرنسيين ، فان آخر كتاب له قد سجل ارتفاعه الى مستوى عالمي ، اذ جعل كل المضطهدين في الارض يتعرفون على انفسهم خلاله . وما لبث ان تطور « معذبو الارض » من مجرد صرخة في وجه الغرب الاستعماري والاستغلال ، الى كتاب ثوري جديد ، يحتضنه كثيرون في خشوع وتعلق يذكر بحماس القبائل البدائية لمعتقدات الاسلاف .

هذا المصير المدهش الذي لقيته كتابات فانون ، هو الذي يفسر تلك العناية العالمية بتفكيره ، ففي الوقت الذي تنكب فيه حركة الزنوج في اميركا على كتب فانون وتعتبرها ملهمتها ومرشدتها ، نجد الدراسات عن فانون لم تتوقف في هذه المنطقة أو تلك من مناطق العالم ، فهذا كتاب يصدر بالفرنسية ، وهذا آخر يصدر بالالمانية ، وتلك مجموعة متعددة تصدر بالانكليزية الخ .. وسواء كان الذي يكتب عن فانون من انصاره المعجبين أو من منتقديه بعنف او من بين اولئك الباحثين المنهجيين الذين يقولون انهم يقفون على الحياد ، فالذي لا شك فيه هو ان الجميع يتفقون على ان اسم فانون وفكره اقترن بكفاح الشعوب المضطهدة وبصراع العالم الثالث عبر الثورة الجزائرية .

وقد كان لقاء فانون بالثورة الجزائرية عاملا اساسيا في تعقيد المهمة امام كل باحث في شخصية فانون وفكره • وزاد في تعقيد هذه المهمة مجموعة من العوامل ابرزها :

اولا : معظم الذين كتبوا عن فانون لم يكونوا مطلعين على تاريخ الحركات الوطنية في الجزائر وعن اتجاهاتها الفكرية ، وقد ادى ذلك الى الغفلة عن ربط ثورة نوفمبر بالجذور الفكرية التي تستند اليها مما ادى الى عدم العناية باكتشاف الخط الفكري للثورة الجزائرية •

ثانيا : كانت الثورة المسلحة في نوفمبر ١٩٥٤ مفاجأة للجميع : وكان رد الفعل الفرنسي ازاءها هو انكار ان تكون منبثقة عن الداخل ، لان الاعتراف بمصدرها الداخلي اي الاعتراف بالواقع ــ من شأنه ان ينسف كل الارضية التي يستند اليها الاستعمار •

وكان من نتائج هذا العامل ان دفع بالنقاش في اتجاهات ابتعدت عن الطريق الاسلم ، وهو طريق البحث في ماضي الحركات الوطنية الجزائرية عما ينير ثورة نوفمبر ويكشف عن حتميتها •

ثالثا : كثير من الذين بحثوا في فانون ، ركزوا على كتاباته التي ظهرت في ظل الثورة الجزائرية وبالتالي غفلوا عن اجراء مقارنة علمية وشاملة بين ما كتبه قبل انضمامه للثورة الجزائرية ، وبين ما كتبه بعد انضمامه لجبهة التحرير الوطني •

ونتيجة لذلك اعتبرت كتاباته خلال حرب التحرير ، في نظر كثيرين هي البداية وهي النهاية التي توصل فكر فانون •

ادت هذه المجموعة من العوامل الى ترويج فكرة استقرت في الاذهان من كثرة ما ترددت في الكتابات وهي ان فانون اثر في الثورة الجزائرية ، وان تأثيره كان حاسما ، حتى ان هناك من اعتبره هو منظّر الثورة الجزائرية ومفكرها •

بل ان هناك من الباحثين الغربيين من بالغ في تضخيم دور فانون وتأثيره على مجرى الثورة الجزائرية ، الى درجة القول بأن « اقامة فانون بعض الوقت بين اطارات الجيش في الحدود » كانت حاسمة في فصل النزاعات التي نشبت بالجزائر ابان الاستقلال، لان الشق المنتصر خلال ازمة الحكومة المؤقتة ، كان هو الشق الذي اعتبر نفسه وريثا لفكر [1] فانون وممثلا للاشتراكية والتقدم .

ومع اشتداد العناية بفانون ، ظهرت تأكيدات هي ابعد ما تكون عن الحقيقة ، مثل القول بأن فانون كان من رجال اول نوفمبر ، او انه هو الذي وضع برنامج وادي الصومام . وهي تأكيدات جعلت صورة فانون تقترب اكثر فأكثر من الاسطورة وتبتعد عن الحقيقة .

والواقع ان قيمة فكر فانون لم يكن لينقص عندما تقال الحقيقة عن تاريخ انضمامه للثورة الجزائرية ، ولذلك لم افهم الدافع الذي دفع السيدة فانون الى ان تؤكد لاحد الذين كتبوا عن فانون بأنه كان في صفوف الثورة منذ فاتح نوفمبر ١٩٥٤ [2] .

كما ان قيمة مقررات الصومام لم تكن لتنقص عندما نعرف بأن فانون لم يسهم في تحريرها .

ومهما يكن من شيء ، فنحن لا ننكر وجود اي تأثير لفانون في الثورة الجزائرية ، فتأثير فانون موجود وقائم ، وليس هو موضوع بحثنا .

لكن الحقيقة التي يهمنا الكشف عنها في هذه المحاولة تتصل بنقطتين لا بد من توضيحهما انصافا للتاريخ وانصافا لفانون نفسه :

أ ــ الكشف عن تضخيم تأثير فانون في الثورة الجزائرية وتحليل عوامل ذلك .

ب ــ توضيح نقطة هامة بقيت حتى الآن في الظل ولم تحظ بعناية أي باحث ــ على ما اعرف ــ وهي مدى تأثير الثورة الجزائرية في فانون وفي تطور فكره .

اذن فالذي ننكره هو سريان التأثير في اتجاه واحد من فانون الى الثورة الجزائرية . والواقع اننا عندما نكتشف مدى تأثير الثورة الجزائرية في فكر فانون نستطيع ان نفهم لماذا اثر فانون في هذه الثورة ؟ فما دام فانون قد تأثر بهذه الثورة وهضم الكثير من افكار ومبادىء الحركة الوطنية الجزائرية ، واصبح بالفعل جزائريا ، فانه يصبح ــ عمليا ــ جزءا من هذه الثورة مثل كثيرين من الجزائريين الذين اثروا في توجيهها وصياغة مواقفها والتعبير عن خطها .

وفي هذه الحالة يكون من الصعب عمليا انتزاع فانون من وسط التأثيرات التي تفاعل معها، واعتبار كتاباته شيئا منفصلا، والاكتفاء بالكشف فقط عن مدى تأثيره هو في ثورة نوفمبر .

ان التركيز على هذه النقطة بالذات ، اي سريان التأثير من فانون الى الثورة الجزائرية دون محاولة الكشف عن الاتجاه المقابل ، يظل غير مفهوم عند كثيرين من الجزائريين الذين عاشوا ثورتهم فكرا وممارسة . وقد لمست عند غير واحد من الكوادر الجزائرية التي كانت محتكة بالحركة الوطنية وبثورة نوفمبر ، هذا التساؤل : ما هو تفسير توجيه كتابات الغرب لتلك الوجهة المعينة ، دون غيرها من الاتجاهات التي ترتبط بها ولا يمكن ان تنفصل عنها .

في اعتقادي ان ذلك يرجع الى عدة عوامل هي :

١ ــ اول هذه العوامل ان فانون الكاتب والمفكر كان معروفا في اوساط اليسار الفرنسي قبل قيام الثورة الجزائرية فكتابه « بشرة سوداء

اقنعة بيضاء » صدر في باريس عام ١٩٥٢ وقدم له فرانسيس جانسون الذي كان من بين مريدي سارتر آنذاك •

وهذا يعني ان شهرة فانون ككاتب ومفكر فياوساط اليسار الفرنسي كانت سابقة على قيام الثورة الجزائرية •

واذا كانت بعض اوساط اليسار الفرنسي محتكةفي ذلك التاريخ ومن قبل ذلك التاريخ بالحركة الوطنية الجزائرية فقد كانت تقتصر نشاطها على الدفاع عن المطالب السياسية لتلك الحركة دون ان تحاول الكشف عن جذورها ومحركاتها العميقة •

وقد اشتهر فانون مع ظهور كتابه الاول في ١٩٥٢ نظرا الى النقاش الذي صاحبه ، والواقع ان كتابات فانون كلها من النوع الذي يثير النقاش والنقاش الحاد • ذلك ان فانون يتفاعل مع ما يكتب بشدة ، يتعلق بالفكرة التي يشرح اي المبدأ الذي يعرض بعنف وبصفة كلية ، ويكره ويعادي بعنف وبصفة كلية • لا مكان عنده لما يعرف « بالنيونس » اي المواقف بين بين ، كان عندما يكتب ــ وقد عرفته في ذلك عن كثب ــ ينفعل بموضوعه بجميع عواطفه •• كان كأنه يقد كلماته من صخر • وكان هذا الانفعال الكلي ينعكس حتى على قراءته عندما يتلو للآخرين ما كتبه ، فقراءته أبعد ما تكون عن الاسلوب « المنفصل » الذي يوحي بأن العلاقة بين القارىء وما يقرأ علاقة « موضوعية » كان حماسه لكتاباته ينفجر مع كل معنى وكل فكرة بل وكل كلمة • كان يريد ان ينقل انفعاله الى الكلمة ، وكان يريد من الكلمة ان تضمن نقل هذا الانفعال الى القارىء ، ومن هنا كان ذلك الشعور الذي يلمسه المستمع لفانون ، بأن العلاقة بينه وبين ما يكتب تكاد تكون علاقة حسية •

يقص علينا فرانسيس جانسون، في المقدمة التي وضعها لكتاب فانون

الاول ، انه كتب للمؤلف ذات يوم يستوضحه عن معنى فقرة بدت له غامضة ، فأجابه فانون بما يلي :

« هذه الجملة غير قابلة للشرح ، اني ابحث عندما اكتب عن مثل هذه الاشياء اريد ان اصل الى قارئي عاطفيا : اي بكيفية لا عقلانية ، بكيفية حسية تقريباً » .

ثم يضيف :

« ان للكلمات عندي شحنة اني اشعر بعجزي عن التخاص من عضة كلمة او من دوار علامة استفهام » .

ويعلق جانسون على ذلك قائلا :

« ... وهكذا يحدث ان يقذف فانون فجأة وسط فكرة ، وفي خضم محاجة ، بتلك الشحنة من الكلمات ، تلك الديناميت التي تتفجر داخل الكلمات بمجرد ان يتوقف تحييدها بفعل اندراجها وسط كلام متتابع . وفي هذا الوقت الذي يفجر فيه فانون سياق الكلام ، يعمد الى خلخلة اطمئناناتنا الفكرية ، وينقل الينا نفس الانفجار الذي تعرض له ، من كثرة ما اصطدم بالعبث وتصادم بالحالة الانسانية [٣] » .

وليس من اللازم ان يكون الانسان قد عرف فانون لكي يعي بهذه الحقيقة ، يكفي ان يقرأ اي كتاب لفانون ليشعر بتلك الشحنة من الانفعالات ، ذلك انه كان يريد لكلمته ان تكون فعالة ، ان تخلف اثرا ان تهدم القديم . ولذلك سجل بعضهم بحق ان « فانون يستعمل باستمرار الكلمة المكتوبة كما يستعمل اداة من حديد » .

هذا النوع من الكتابات لا يمكن ان يمر دون ان يحس به الناس .. ولذلك يمكن القول بأنه مهما كان انتشار كتاب فانون الاول محدودا فانه قد جعله معروفا لدى اوساط اليسار الفرنسي بما يكفي ليجعل لكتاباته الصادرة بعد ذلك صدى كبيرا .

٢ ـ لكن طابع كتابات فانون وانفعاله مع ما يكتب لا يكفي وحده لتفسير الصدى الواسع الذي وجدته كتاباته في الاوساط الغربية • فهناك عامل آخر يتعلق ـ بجوهر فكره ـ اذا كان الاول يتعلق بالاسلوب ، وهو ما يمكن أن يسمى بالأصول الغربية لتفكير فرانز فانون •

فقد سجل الذين كتبوا عنه تأثره بهيغل او ماركس او فرويد او سارتر او مارلو بونتي ، الى آخر المدارس والتيارات الفكرية الغربية التي تأثر بها فانون ، رغم ما بينها من اختلاف • فقد سجل دافيد كوت مدى تأثر فانون في كتابه « بشرة سوداء أقنعة بيضاء » عند تحليله للعنصرية التي يواجهها الزنجي بالحجج التي استعرضها سارتر في بحثه عن «اللاسامي واليهود» (٤) وسجل فرانسيس جانسون تأثر فانون بسارتر حتى فيما يتعلق بالزنوجه (٥) • ونستطيع ان تتبين بسهولة تأثير المدارس الماركسية في كتابات فانون ، من ١٩٥٢ ـ الى ١٩٦١ •

ولا شك ان وجود اصول غربية واضحة في كتابات فانون تساعد على تقبل فانون من طرف الفكر الغربي وتشحذ الاهتمام به ، رغم ما فيه من عنف ومن ثورية •

وقد اتيح لنا ان نلاحظ هذه الظاهرة خلال حرب التحرير بالجزائر : ونعني بذلك ظاهرة سعي الغرب الى تأصيل فكرة أو احتوائها ، فمن بين المسائل التي كانت الصحافة الفرنسية مغرمة بها هي محاولة العثور على مظاهر التأثير الفرنسي لدى قادة واطارات الثورة الجزائرية •

فذلك المسؤول ناجح لانه سبق له ان درس بالمدارس الفرنسية •• وذلك القائد العسكري سجل عدة انتصارات في الجبل لانه كان قد تدرب على حرب العصابات في صفوف الجيش الفرنسي الذي حارب في فييتنام •

وذلك السياسي لم لانه تلقى تكوينه في السجـون الفرنسيـة • فحتى السجون ـ يشترط ان تكون فرنسية ـ كانت مصدر اعتزاز وفخر للفكر الفرنسي اذا كان ذلك يؤدي الى احتواء حركة ولو معنويا ومن بعيد •

صحيح ان كتابات عنيفة صدرت في صحافة الثورة الجزائرية ، خلال حرب التحرير ، ضد اليسار الفرنسي كانت بقلم فانون • فقد كتب في ١٩٥٧ ثلاث مقالات حادة اللهجة بعنوان « المثقفون والديموقراطيون الفرنسيون امام الثورة الجزائرية » •

لكن ذلك لا ينفي مسألة المصادر الغربية لتفكير فانون ، بل ان تلـك المقالات كانت قد اثارت ضجة في اوساط اليسار الفرنسي لاسباب مختلفة من بينها ان بعض مفكري اليسار كانوا يعتبرون فانون « لهم » ولذلك لم يفهموا ما اعتبروه « تمردا عليهم » •

والواقع ان علاقة فانون باليسار الفرنسي علاقة معقدة تحتاج الـى تحليل خاص سنرجع اليه فيما بعد •

٣ ـ العامل الثالث يتمثل في ان تفكير فانون في المرحلة الأولى لتكوينه الفكري • كان يرفض أي ارتباط بالماضي • كان الماضي عنده معدوما •• وكانت الثورة ـ او التمرد هي نقطة البدء • فهو يقول مثلا :

« اني لا اريد ان اتغنى بالماضي على حساب حاضري ومستقبلي • لا اريد ان اكون ضحية خداع عالم اسود • ان حياتي لا يجب ان تخـصص لتسجيل القيم الزنجية » •

والذي يهمنا هنا ليس هو ثورة فانون ضد « الزنجية » او «الزنوجة» ولكن هو اغفال الماضي •

والحقيقة ان ثورة فانون على الماضي وانكاره لقيم الماضي ، لها مـا يبررها في تلك المرحلة •

ففانون المارتينيكي الاصل من الطبيعي ان يميل الى اطراح الماضي كلية وعدم الاعتماد على اي من قيمه . لان ماضي فانون آنذاك لا يمكن ان يكون الا احد اثنين :

أ ـ ماضي المارتينك ، تلك الجزيرة « الفرنسية » منذ القرن السابع عشر ، التي امتزجت فيها بقايا اساطير تحدرت من اصول افريقية ، مع مفاهيم بدائية لمسيحية محرفة .

وفي مثل هذا الماضي لا يستطيع مفكر مثل فانون ان يجد ما يشبع فكره او يستمد منه نظرية او اثبات وجود . فالتاريخ هناك هو عبارة عن جزء من تاريخ الرق . وتاريخ الرق في الجزيرة لم يكن مقترنا بالكفاح من أجل الحرية ، لان القضاء على الرق ، حسب فانون نفسه ، لم يتم بواسطة كفاح الزنجي من أجل تحرره اذ الزنجي « تاريخيا حرره السيد » انه « لم يقد المعركة من أجل الحرية » .

اذن فتغيير وضعية الزنجي من رقيق الى حر قد تم بعمل خارجي ولم يتم من الداخل .

« الزنجي هو رقيق اصبح مسموحا له باتخاذ موقف السيد » .

والابيض هو سيد سمح لعبيده بأن « يجلسوا الى مائدته » وفي هذا الفصل نفسه يستشهد فانون بهيغل الذي يقول :

« ان تعريض النفس للخطر هو وحده الكفيل بالحفاظ على الحرية ، وباقامة الدليل على ان الوعي بالذات ليس هو الكائن ، وليس هو الشكل الآني الذي يتخذه الوعي بالذات » ، كما يقول ايضا رأي هيغل : « ان الفرد الذي لم يعرض حياته للخطر يمكن ان يعتبر شخصا ، لكنه لم يبلغ حقيقة التعرف على ضمير الذات المستقلة [٦] » .

ويعقب فانون على ذلك بقوله :

« اذن فالحقيقة الانسانية في حد ذاتها ومن اجل ذاتها لا تتوصل الى الاكتمال الا في الكفاح وبالمخاطر التي يولدها الكفاح » .

فالزنجي عند فانون المرحلة الاولى « يجهل ثمن الحرية لانه لم يكافح من اجلها » .

ان هذه الوضعية التي يحللها فانون على مستوى تطور الزنجي من رقيق الى حر ، والتي تنطبق على المارتنيك ، لا يمكن ان يجد فيها فانون تقاليد كفاح يشبع نهمه الى التحرر بالقوة .

وسواء كان رفض فانون للماضي في تلك المرحلة عن وعي بهذه الحقيقة أو لأنه كان قد تعرض للمسخ الثقافي الاستعماري فالذي لا شك فيه هو أنه كان في اعماقه يود لو ان المارتينك كانت له تقاليد كفاح .

يؤكد ذلك ان فانون كتب في مطلع ١٩٥٨ مقالا عن جزر الانتيل ، علق فيه على استقلال الانتيل البريطانية ، بعنوان « ميلاد امة في جزر الانتيل » ؟ يكشف بوضوح عن امل فانون في انبعاث امة بجزر الانتيل (٧) .

كما كتب مقالا آخر بعد ذلك بسنتين علق فيه على وقوع أحداث دامية في المارتنيك بعنوان « الدم يسيل في جزر الانتيل الواقعة تحت السيطرة الفرنسية » جاء فيه :

« هناك مارتينكيون لم يترددوا في خوض معركة مفتوحة ضد القوات الفرنسية ومهاجمة مراكز الشرطة . وقطع الطرق . لقد انطلقوا من اعماق ثلاثمائة عام من الحضور الفرنسي يحملون السلاح (٨) » .

ب ـ اما الماضي الاخر الذي كان يمكن ان يعتز به فانون ويستلهمه ، فهو ماضي الجزائر .

لكن فانون في ١٩٥٢ لم يكن قد تعرف على الجزائر ولم يكن قد

نشأ في وسط متشبع بالثقافة العربية الاسلامية حتى يمكن له أن يكتشف، قبل قيام الثورة الجزائرية : أهمية الماضي في توجيه الانسان .

ولا شك ان هذه الادانة المطلقة للماضي عند فانون في المرحلة الاولى لتطوره الفكري تلتقي مع رغبة عميقة لدى الفكر الغربي عموما ؛ والاستعماري منه بصفة خاصة . لان الماضي الوحيد الذي يعترف به الفكر الغربي هو ... الماضي الغربي ، الماضي الغربي هو وحده الذي يستحق التمجيد ؛ وهو وحده الذي يملك حق الاستمرار حيا في الحاضر ، ممتدا الى المستقبل .

اما ما عدا ذلك فهو ماض جدير بالادانة . ونستطيع ان نلمس هذا الموقف الذي يتخذه الفكر الغربي من الماضي في عدة مظاهر :

ـ هو يبدو في موقف الفكر الغربي من حركات التحرر والتيارات الاساسية التي توجهها : فكما ظهر تأثير الفكر الغربي في تيار ما ، كلما كانت العناية به اكثر والتعاطف معه اشد .

ـ وهو يبدو حتى في تقييم تاريخ المستعمرات ، فاذا كانت بلاد الشمال الافريقي بها دول ذات سيادة وتعرف الحدود مثل اوروبا ، من قبل ان تعرف الاحتلال ، فليس ذلك الا لان الاتراك الذين هم « نصف اوروبيين » قد حملوا الى افريقيا فكرة الحدود وفكرة السيادة الوطنية حسبما يقول روبير اجرون (٩) .

واذا كانت الجزائر قد عرفت حياة سياسية نشيطة فيما بين الحربين العالميتين ، فالفضل في ذلك يرجع الى الاحتكاك بالفرنسيين ، ذلك « ان الجزائر لم تعرف الحياة السياسية العصرية الا حوالي ١٩٣٠ » ، ولان الجزائر « كانت تجهل ما هو الشعور الوطني ، اذ لا توجد لديها تقاليد سياسية ، على ان اول حزب سياسي مسلم جدير بتسمية الحزب وجد خارج الجزائر وتكون بفرنسا (١٠) » حسب تعبيرات لوتورنو .

ـ وهو يبدو في رفض الفكر الغربي لان يدان الاستعمار ادانة كاملة. وهو موقف يتكامل مع موقف الرفض الكلي للماضي غير الغربي ؛ لان الاعتراف بقيم ماضي المستعمرات يعني الاعتراف ضمنا بان الاستعمار مدان من الاساس . وهذا ما لا يستطيع الفكر الغربي ان يهضمه ، بما في ذلك القطاعات التقدمية منه . لان الاستعمار يشكل جزءا وجزءا هاما من ماضي الفكر الغربي . ولهذا قد نجد عنده ادانة لهذا التصرف او ذاك ؛ لهذه المرحلة او تلك من مراحل الاستعمار ؛ لكننا لا نجد في الفكر الغربي ادانة مطلقة للاستعمار . ومن هنا كان نفور الفكر الغربي من كل فكر تشتم منه رائحة الوجود السابق والمتميز عن الوجود الغربي ؛ ومن هنا كان احتضانه ـ بصفة او باخرى ـ لكل فكر يتنصل من الماضي تنصلا كليا .

وهذه النقطة بالذات تساعد ليس فقط على فهم مواقف بعض الغربيين من فكر فانون، ولكنها تسمح أيضا بتسليط الضوء على عديد من العلاقات المعقدة والمتداخلة التي نلحظها اليوم ـ وفي الساحة المشرقية على الخصوص ـ بين الفكر الغربي وقطاعاته التقدمية ، وبين بعض التيارات الفكرية ـ او التي تريد ان تبدو كذلك ـ في بعض الحركات السياسية وحركات المقاومة .

٤ ـ اما العامل الرابع فيتمثل في ان فكر فرانز فانون سجل تطورا مدهشا في ظرف اقل من عشر سنوات ، ففي عام ١٩٥٢ ظهر كتابه الاول « بشرة سوداء اقنعة بيضاء » ، وفي عام ١٩٦١ ظهر كتابه الاخير « معذبو الارض » وهي سنة وفاته (اما كتاب من اجل ثورة افريقيا ، الذي ظهر بعد وفاته ، فهو مجموعة مقالات كتبها فيما بين ذلك وظهر معظمها في صحيفة المجاهد) .

خلال هذه المدة تطور فكر فانون من تمرد على الزنجة في نطاق

الاقرار ــ بل والتبني ــ للاطار الفرنسي ، الى ثورة عميقة في نطاق حــرب التحرير الجزائرية والتمسك بمبدأ استقلال الجزائر ، والادانة الكاملــة للاستعمار الفرنسي ، الى نوع من الاممية على مستوى العالم الثالث •

٥ ــ وهناك عامل خامس يتصل بكتاب فانون الاخير ، معذبو الارض، الذي ظهر في فترة حاسمة بالنسبة لتاريخ العالم الثالث • فقد شهــــدت الستينات تحقيق استقلال الجزائر ، الذي كان بمفرده معجزة هزت الدنيــا وشغلت الناس • وفي نفس الوقت تميزت الستينات بتحسس العالم الثالث للمشاكل الاقتصادية التي لم يكن بوسع الاستقلال السياسي الشكلي ان يحلها •

جاء كتاب « معذبو الارض » في فترة مناسبة اذن ، لانه استطاع من خلال التجربة التي حصلها مؤلفه في ظل الثورة الجزائرية ان يطرح قضايــا تعميق الثورة ، والمظاهر السلبية للاستقلالات الشكلية ، وان يكشف النهب الاستعماري لثروات العالم الثالث ، وان يفعل ذلك بما عرف عنه من لهجة حادة واسلوب يعمل كالمبضع •

ونظرا لحاجة العالم الثالث الى عمل فكري ثوري يصدر عن صفوفه ، فقد اولى « معذبو الارض » ذلك الاعتبار الخارق •

٦ ــ وهناك عامل سادس زاد في توسيع دائــرة الاهتمــام بفانون ، يتلخص في احتضان ثورة الزنوج باميركا لفكر فانون واعتبار كتاباته انجيلا لها ، تتعلق به بكل ما عرف عنها من شدة انفعال وعميق هيام •

وكان ذلك ــ في الوقت نفسه ــ ايذانا بعناية عدة أوساط بكتابات فانون ، وجعلتها موضوع دراسات علمية ، توصلا الى فهم الاصول التــي تعتمدها ثورة الزنوج في أميركا •



تلك هي في نظرنا اهم الاعتبارات والعوامل التي تفسر هـذه العناية الواسعة بفكر فانون •

اما اهمال تسليط الضوء على مدى تأثير الثورة الجزائرية في فانون ، فهو يرجع ـ زيادة عما يتصل بهذه النقطة من العوامل التي اسلفنا الكلام عنها ـ الى عامل اساسي يرتبط بطبيعة الثورة الجزائرية وطابع صراعها مع الاستعمار •

فمن الاسس النظرية التي استندت اليها الثورة الجزائريـة ، هـو الوجود المتميز للشخصية الوطنية الجزائرية ، ووجود الدولة الجزائريـة المستقلة ، السابق على الاحتلال الفرنسي ، اي قبل ١٨٣٠ •

ولذلك ما انفكت الثورة الجزائرية تؤكد في الكتابات الصادرة عنهـا خلال حرب التحرير ، ان نوفمبر ١٩٥٤ امتداد ووصل وتجديد لما كان عليه الامر من قبل ١٨٣٠ : وذلـك يعني الالغـاء الكامـل لفترة الاحتـلال الاستعماري •

لكن الفكر الغربي لا يستطيع ان يلغي الاستعمار دفعة واحدة مـن تاريخه ، بل هو يحاول تبرير الاستعمار بالترويج لفكرة «حتمية الاستعمار» من جهة ، ولفكرة « ايجابية الاستعمار » من جهة اخرى •

« وحتمية الاستعمار » الناتجة عن « قابليـة المتخلفين للاستعمار » (وهي فكرة حازت على كثير من أبناء الـدول المتخلفة ورددوها اثنـاء الاستعمار كما لو كانوا عثروا على كنز في حـين ان اصولها الاستعماريـة والعنصرية في الفكر الغربي واضحة) ـ هذه الفكرة تبرر الاستعمار أو مظالمه الاولى •

« وفكرة ايجابية الاستعمار » تهدف الى تبرير استمراره ، او بعبارة ادق الى تبرير مقاومته لحركات التحرير واضطهاده للشعوب الطامعة لنيل الاستقلال •

وعلى هذا الأساس نجد ان الذين سلموا ــ من ممثلي الفكر الغربي ــ بوجود الشخصية الوطنية الجزائرية خلال حرب التحرير . حاولوا ان يجعلوا تكوينها حديثا ومرتبطا في الوقت نفسه بالوجود الاستعماري . ولم نجد فيما اطلعنا عليه من كتابات ان باحثا غربيا في تاريخ الجزائر الحديث حاول ان يتعرف على مدى الدور الذي قامت به في التهيئة لمقاومة الاستعمار، تيارات وطنية نبعت من داخل المجتمع ، بعيدة عن اي تأثير خارجي .

واذا نحن حاولنا استقصاء الحقيقة حول هذا الموضوع ، نجد ان موقف الغرب هنا مفهوم من وجهة نظر غربية، أي انه كان منطقيا مع نفسه. لان تسليمه بوجود تيارات وطنية نابعة من داخل المجتمع يعني الحكم على نفسه بالزوال .

وهذا ما يفسر تعمد غير واحد من الباحثين الغربيين اعتبار المؤثرات العربية الاسلامية في الحركة الوطنية الجزائرية « عوامل خارجية » . وسواء اكتست تلك المؤثرات طابعا اصلاحيا دينيا مثل حركة جمال الدين الافغاني ومحمد بن عبد الوهاب ومحمد عبده، أو أخذت شكلا ثقافيا وسياسيا مثل حركة شكيب ارسلان : فهو ــ أي الغرب ــ يعتبرها « عوامل خارجية اجنبية » .

ويتغافل ــ عمدا ــ عن ان الجزائر تندرج في الاطار الحضاري العربي ــ الاسلامي ؛ وانه ، تبعا لذلك ، لا يمكن لهذه المؤثرات ان تعتبر عوامل خارجية اجنبية .

هنا نتوقف قليلا لتوضيح نقطة قد تبدو جانبية : فقد كنت اشرت الى احتمال انه لو كان فانون متشبعا بالثقافة العربية ــ الاسلامية ، لكان موقفه من الماضي قد اختلف ــ في مرحلة تكوينه الاولى ــ عن موقف الادانة المطلقة . فقد يتسائل البعض : وما دخل الاسلام او الثقافة العربية ــ الاسلامية في ذلك ! واذا كان هذا التساؤل قد يطرح في المغرب العربي على

نطاق ضيق ، فلا شك انه سوف يطرح على نطاق اوسع في المشرق العربي .

لذلك يتعين توضيح الظروف التي كانت تعيشها الجزائر فيما بين الحرب العالمية الاولى والحرب العالمية الثانية .

فقد كان ذلك الظرف هو الذي اختمرت خلاله وتفاعلت اهم الاحداث التي ادت الى الثامن من ماي ١٩٤٥ ، ثم بعد ذلك بتسع سنوات الى اول نوفمبر ١٩٥٤ .

لقد ظلت الجزائر منذ ١٨٣٠ تقاوم الاستعمار الفرنسي مقاومة مسلحة، واستمرت تلك المقاومة متصلة ــ مع توقفات قليلة ــ طيلة اكثر من ثمانين سنة .

ومع نهاية الحرب العالمية الاولى ، بدت الاجهزة الاستعمارية متمكنة من الوضع الى درجة بعد معها التفكير في تنظيم حركة مسلحة، ووقع الاتجاه الى الاشكال السياسية للمطالبة بالحق ، واصبحت كل دعوة للمقاومة المسلحة تبدو عملية جنونية انتحارية .

وزاد في تعميق هذه الصورة ان الوجود الفرنسي خلال تلك الفترة ، كان قد افرز « نخبة جزائرية » مفرنسة انفصلت عن ماضيها وعن شعبها ، واصبحت باريس هي قبلتها متوهمة ان مستقبلها هناك .

وليس يهمنا هنا الشكل السياسي الذي اسفر عنه وضع هذه النخبة، أي قيام حركة سياسية ، ذات مظهر « تقدمي » انذاك ، تطالب بالادماج الكامل في فرنسا وباعتبار كل « الاهالي » فرنسيين كاملي الحقوق ، ولكن الذي يهمنا هو انتشار فكرة استحالة المقاومة المسلحة .

في هذا الجو الخانق الذي بدت فيه آفاق العمل المسلح مسدودة ، ما هو الملجأ الذي يمكن ان يعصم الشعب من عملية الحث الاستعماري التي كانت تهدف الى تحقيق امرين .

ايجاد نخبة من الاهالي تكون رديفا للكادر الفرنسي وتعزيزا «اهليا» للوجود الاستعماري ولو باعطائها بعض الحقوق التي تميزها عن بقية الشعب .

سلوك سياسة تفقير وتجهيل متواصل ؛ من شأنها ان تجعل مجموع الشعب عبارة عن سوق من العبيد يستمد منها الاقتصاد الاستعماري ما هو في حاجة اليه من أعوان وأيد عاملة .

كان الملجأ الوحيد للشعب ، هو التمسك بشخصيته وثقافته العربية ـ الاسلامية تمسكا شديدا يسميه الاستعماريون « تعصبا أعمى » . ومفهوم الثقافة هنا هو أوسع مفهوم ، بحيث يتسع للتقاليد والعادات وكل صور الثقافة التقليدية سواء كان مصدرها الكتاتيب القرآنية ، أو الزوايا الطرقية والمعاهد الدينية ، أو المدارس العربية الحرة أو النوادي الاصلاحية أو الاساطير الشعبية .

وقد أدرك الاستعمار ان مراكز الثقافة التقليدية تشكل خطرا على مستقبله فحاربها باسلوبين مختلفين ، لكنهما يلتقيان في النهاية :

ـ حاربها بواسطة الاحتواء ـ فقد عمل على احتواء الزوايا والطرق الصوفية التي تحول بعضها الى حليف موضوعي للاستعمار وتحول كثير من رؤوسها الى أعوان له يستفيدون منه ويساعدون على تنويم الشعب . وتمثلت عملية التنويم في انتشار ذلك الشعار الذي كانت تردده كثير من الاوساط الطرقية « اعتقد ولا تنتقد » .

ـ كما حاربها بواسطة المواجهة المباشرة عن طريق سد المنافذ امام اللغة الوطنية ومنعها من حق الوجود الحر والحياة العصرية .

وكان من نتائج هذه الحرب ضد الثقافة الوطنية ان تعزز الشعور بأن الخلاص يكمن في التمسك بهذه الثقافة .

ولم يكن بد من أن يتداخل التمسك بالثقافة العربيـــة مع التمسك بالاسلام ، لانه لا يمكن الفصل بينهما في شمال افريقيا من جهة ولان ذلك كان من جهة أخرى نتيجة طبيعية للعمل الاستعماري نفسه الذي لم يخف علاقته بالمسيحية وعدائه الشديد للاسلام . وقـــد تمثلت هذه الظاهـــرة بالنسبة للجزائريين ــ في صورة عملية واضحة أقوى من كل تفلسف وكل تنظير .

تمثلت في تحويل المساجد الى كنائس ، وليس فقط في بناء كنـــائس جديدة ، كما تمثلت أحيانا في مطاردة ومعاقبة من يعثر عنده على مصحف قرآن .

اذن أدت هذه الحرب المطلقـــة التي شنها الاستعمار على العربيـــة والاسلام في الجزائر الى رد فعل معاكس تماما : تمسك الشعب بالاسلام والعربية ، واللجوء الى أسلوب القنفذ في الدفاع ، أي الانغلاق والتقوقع حتى لا يجد الاستعمار مدخلا للنيل من الشخصية الوطنية .

في هذا الاطار تصبح الثقافة الوطنية ، رغم تخلفهـــا الشديـــد هي العاصم من التحلل والذوبان في المحتـــل ، وتتوقف للسبب نفسه من أن تكون عاملا سلبيا لتصبح عاملا ايجابيا يعزز المقاومة ضد المحتل ، ويبقى على المقومات الاساسية للشخصية الوطنية ويحفظهـــا حتى تكون بعـــد الاستقلال ، مهيأة للخلق والابداع .

لقد كانت قوة الشعب الوحيدة أمام تلك الحرب الاستعماريـــة الشاملة هي الرفض المطلق للاستعمار دون أي تمييز . وقد حاولت النخبة

التي أشرنا اليها آنفا أن تحمل الشعب على تقبل ما تسميه المظاهر الايجابية للاستعمار مستشهدة بالمستوى الحضاري الذي حققه المستعمر (بالكسر) وبحاجتنا الى استعمال نفس الأداة .

وقد نسيت تلك النخبة ان كل محاولة للتمييز بين مظاهر الاستعمار على أساس قبول بعضها يعني الانحناء أمام الاستعمار وتمكينه من أن يتم عمله التفتيتي الاندماجي والابادي في الوقت نفسه .

لذلك كان موقف الشعب ، في رفضه كل ما هو فرنسي أكثر سلامة من موقف تلك النخبة، فليس مثل الرفض المطلق سلاحا عندما تنسد آفاق العمل الايجابي وتغيب امكانيات العمل المسلح .

لن نعدم ، في مثل هذا النقاش ، من يحاول ان يستشهد على ايجابية الاستعمار بالأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية والذي كان بعضه أدب مقاومة .

بل لن نعدم من يقارن بين الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية والأدب المكتوب بالعربية ، ليؤكد ـ وهو في ذلك على حق ـ ان الأول أرفع مستوى من الثاني وأوسع أفقا وأعمق معاني وأغزر مادة .

لكن لا يجوز أن نغفل عن حقيقة الموقف ، ولا يجوز أن تخدعنا المقارنة بين الظواهر .

فاذا كان الأدب المكتوب بالعربية أقل مستوى من المكتوب بالفرنسية فلا يجوز أن ننسى بان مجرد الكتابة بالعربية الفصحى بقطع النظر عن قيمتها الأدبية والفنية ، كان يعتبر نوعا من المقاومة . وكانت القراءة بالعربية بقطع النظر عن مستوى القارىء والمقروء كان عملا يدعم تلك المقاومة ويسندها .

ثم ان كون بعض الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية أدب مقاومة،

يعكس حقيقة أعمق لا يجوز أن ننساها في هذا المجال ؛ وهو تأثير البيئة التقليدية والأم الجزائرية في الكاتب الجزائري الذي أستخدم اللغة الفرنسية لتكون تعبيرا عن مقاومته ورفضه للاستعمار .

فالبيئة التقليدية بتمسكها الشديد بمظاهر الشخصية الوطنية وبرفضها المطلق هي التي أمدت، عبر الآلام الجزائرية، أولئك الكتاب وهم ما يزالون أطفالا بعد ، بتلك الروح التي جعلتهم ينجحون في التخلص من التأثير السلبي للثقافة الفرنسية ويعبرون عن رفضهم للاحتلال حتى باللغة الأجنبية .

ان هذه الحقيقة يؤكدها لنا فانون نفسه : بعد أن انضم الى الثورة الجزائرية وتأثر بها فهو يؤكد في كتاب « الثورة الجزائرية في عامها الخامس » (سوسيولوجية ثورة)

« ان التمسك بالمحيط التقليدي الراكد ، يؤدي الى رفض مطلق للحضارة الاستعمارية وبالتالي للتطور التقني . انه ليس في امكان المستعمرين (بالفتح) أن يميزوا بين المؤسسات القمعية وبين المؤسسات ذات المحتوى التطوري . وفعلا فان كل اجراء تطوري جزئيا يستلزم استغلالا اقتصاديا لقوى العمل ، يمشي جنبا الى جنب مع العنصرية والاضطهاد . ان الحقيقة المعبر عنها بصفة موضوعية تزيفها دوما كذبة الوضعية الاستعمارية » (١١) .

وبالنسبة للتلاحم الموجود بين الاستعمار وبين المسيحية ، نجد فانون قد سجل هذه الحقيقة التي تأكد منها في ضوء التجربة الجزائرية والتجارب الافريقية فهو يقول :

« ان الكنيسة في المستعمرات هي كنيسة بيض (اقرأ أروبيين) هي كنيسة أجانب، انها لا تدعو انسان المستعمرات الى طريق الله، لكنه تدعوه

الى طريق الأبيض (الأروبي) الى طريق السيد الى طريق الظالم » [١٢] .
وهي حقيقة قد أكدها من قبل ذلك ويلهالم رايخ عندما قال :

« لسنا نحتاج الى الذكاء ولكن الى قليل من الشجاعة المعنوية لكي نعترف بان الدول الرأسمالية لا تحمل للشعوب المستعمرة (بالفتح) العقيدة المسيحية والملبس والذوق الجمالي بدافع الحضارة لكنهـا تريد ان تغرس عند كل مستعمر (بالفتح) عقلية تتبع الأوروبي فتدفعه الى شرب الخمور أضعافا لبدنه وارادته حتى تتمكن من استغلاله بسهولة [١٣] » .

اذن فليس مبالغة ولا تعصبا ولا رجعيـة ما نؤكده من ان التمسك بالثقافة التقليدية خلال الاستعمار ، يعتبر مظهرا ايجابيا من مظاهر المقاومة ضد الاستعمار .

والخلاصة ان فانون قد حقق فيما بين ١٩٥٢ ــ و١٩٦٢ تطـورا فكريا كبيرا ، فقفز من التمرد الفردي على الزنوجية الى الثورة الوطنيـة القومية في نطاق حرب التحرير الجزائريـة ، الى نوع من الأمميـة على مستوى العالم الثالث ، لان الثورة الجزائرية نفسها أتاحت له اتصالات جديدة مع العالم الخارجي وأمدته بتجربة ضخمـة أدت به الى أن يعيـد النظر في اتصالاته وأفكاره القديمة ويتخذ منها موقفا نقديا خلاقا .

وقد ترك لنا فانون في كل مرحلة مـن هذه المراحل الثلاث كتابـا معينا : فالتمرد على الزنوجية كفلسفة تنادي بالقيم الزنجية سجلها كتابـه « بشرة سوداء أقنعة بيضاء » . ومرحلة الثورة الوطنية سجلها في كتـاب « الثورة الجزائرية في عامها الخامس » . ومرحلة أممية العـالم الثالث ، سجلتها صرخاته المدوية في « معذبو الأرض » .

ونظراً الى ان فانون كان له من عمق الثقافـة وتنوعها ومن سعـة الاطلاع ومن القدرة على العمل المتواصل ما مكنه من تسجيـل كل هذه المراحل في كتابات بقيت ، فقد أخذ غير واحد من الباحثين في فكر فانون

تلك الكتابات وبصفة خاصة ما صدر منها خلال حرب التحرر الجزائرية، على انها كانت عنصراً أساسيا في الثورة الجزائرية وغفلوا عن عناصر التأثير التي أمدت بها الثورة الجزائرية فانون والتي ساعدت على تطويره الفكري •

ولسنا نشك في ان أولئك الباحثين لو تعمقوا في بحث الثورة الجزائرية واستجلاء أصولها ومحركاتها النظرية والتاريخية والنفسية الخ، لاكتشفوا مؤثرات هذه الثورة في فكر فانون •

لكن عدم وجود كتابات فكرية عميقة ــ الا نادراً ــ عن الثورة الجزائرية ، في مستوى التغيير السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي أحدثته ثورة أول نوفمبر ، جعل جانب تأثير الثورة الجزائرية في فكر فرانز فانون يبقى في الظل •

ومما ساعد على تداخل وغموض هذه النقطة ، بالنسبة للباحثين الغربيين ان هنالك عنصراً بارزاً من عناصر التعاطف بين فكر فانون وبين فكر الثورة الجزائرية يتمثل في الفلاحين والريف •

فالكتّاب السياسيون الزنوج الذين أعجب بهم فانون في المرحلة الأولى لتكوينه الفكري مثل ايمي سيزير ، كانوا قد استداروا نحو الفلاحين ونحو الريف بحثا عن قيم يمجدونها، ولو كانت قيما فولكلورية، حتى يعتزوا بها في وجه الثقافة الغربية وتياراتها الكاسحة التي تريد تذويب كل شيء في ثناياها •

ومعروف ان الفلاحين والريف عنصر أساسي من عناصر الثورة في الجزائر ولا شك ان هذا العنصر كان من بين العناصر التي استهوت فانون وساعدت على انجذابه نحو الثورة الجزائرية لانه وجد في ذلك ميدانا بكراً أو شبه بكر خاليا من التأثير الغربي الذي يحاول أن يفر منه فانون ،

ونظراً الى ان كتاب « معذبو الأرض » يمجد قيم الريف من جهة ، ونظراً من جهة أخرى الى ان الكتابات الزنجية التي تأثر بها في مرحلة أولى قبل قيام الثورة الجزائرية تمجد الريف ، فقد سهل على بعض الباحثين الغربيين أن يستخلصوا من ذلك ان فانون هو الذي أثر في الثورة الجزائرية ؛ حتى في هذه النقطة بالذات .

في حين ان الواقع يختلف عن ذلك . فعنصر الريف والفلاحين ـ والقيمة التي أعطيت لهما في الثورة الجزائرية ـ كان موجوداً في الجزائر منذ اندلاع الثورة ، بل وحتى من قبل نوفمبر ١٩٥٤ والثورة الجزائرية تطورت بالريف وتمركزت بالريف ، حتى من قبل ان يلتحق بها فانون وقبل أن يعرفها ، بل ان أول نوفمبر ١٩٥٤ نفسه كان ـ الى حد ما ـ نتيجة لانتصار المفهوم المنادي بالاعتماد على الريف في الثورة ضد الدعوة الأخرى التي ترى ان تحقيق أي تغيير سياسي لا يمكن ان يتم الا عبر المدن . اذن فالتأثير الحاسم في هذا المجال كان من الثورة الجزائرية في اتجاه فانون وليس العكس .

وتتصل بهذه النقطة حقيقة أخرى غفلت عنها بعض الكتابات الغربية . وهي الاختلاف النوعي بين كتابات فانون قبل اندماجه في الثورة الجزائرية .

صحيح ان فانون « بشرة سوداء ، أقنعة بيضاء » ثائر ، لكن موقفه هنا أقرب الى التمرد هو متمرد على « القيم البيضاء » وهو متمرد على « القيم الزنجية » لكنه لم يضع نفسه ـ سياسيا على الأقل ـ خارج النطاق الفرنسي .

ومجهود فانون في « بشرة سوداء ، أقنعة بيضاء » كان في جزء كبير منه مجهودا « مكتبيا » ان صح هذا التعبير . فهو يحرص على اثبات المراجع التي يأخذ عنها واستعراض المراجع والمصادر في كتابه هذا يكفي

في الكشف عن هذا المجهود المكتبي . وهو أمر طبيعي اذا عرفنا ان فانون كان عند صدور هذا الكتاب ، لا يتجاوز سنه سبعة وعشرين عاما .

أما « معذبو الأرض » فلم يكن فيه نفس الحرص على اثبات المراجع ، لماذا ؟ لان فانون هنا كان يشعر انه يقف على أرض صلبة : كان يملك تجربة ذاتية خاصة ، هي تجربته داخل الثورة الجزائرية .. وبفضل هذه الثورة أصبح يحس بأنه هو أيضا «مرجع» فلا يحتاج الى أن يستند على شيء غير هذه التجربة .

وبذور « الثورة » التي نجدها عنده في « بشرة سوداء ، أقنعة بيضاء » تختلف اختلافا أساسيا عن طبيعة الثورة في كتاباته بـ «المجاهد» أو « الثورة الجزائرية » في عامها الخامس أو « معذبو الأرض » .

وهذا وحده كان كافيا في أن يدفع الى استخلاص السبب . والى تبين مدى وعمق ومظاهر التأثير الذي أحدثته الثورة الجزائرية في فانون نفسيا وفكريا .

---

(١) رينات زهار . انتاج فرانز فانون . ص ٨٤ . ماسبيرو .

(٢) لوكا . سوسيولوجية فرانز فانون . الشركة الوطنية الجزائرية للنشر والتوزيع ـ الجزائر .

(٣) فانون . بشرة سوداء اقنعة بيضاء . المقدمة . ص ١٢ ـ ١٣ .

(٤) دافيد كوث ـ فرانز فانون . ص ٢٢ . نشر سيغير باريس ١٩٧٠ .

(٥) فانون . بشرة سوداء اقنعة بيضاء . ص ١٧ .

(٦) نفسه . ص ١٩٧ .

(٧) من اجل ثورة افريقيا . ص ١٠١ (الطبعة الفرنسية) .

(٨) نفسه . ص ١٩٢ .

(٩) روبير آجرون : تاريخ الجزائر المعاصرة .

(١٠) ر ــ لوتورنو : تطور افريقيا الشمالية المسلمة من ١٩٢١ الى ١٩٦٢ . ص ٣٣١ . نشر كولان . باريس ١٩٦٢ .

(١١) فرانز فانون : سوسيولوجية ثورة (الطبعة الثانية بالفرنسية) ص ١١٥ .

(١٢) فانون : معذبو الأرض (الطبعة الفرنسية) ص ١٠ .

(١٣) نص ورد في كتاب رينات زهار . ص ٣٦ .

- ٣ -

التساؤل الأبدي

تكشف لنا القراءة المدققة لكتاب « بشرة سوداء، أقنعة بيضاء » عن مواقف فانون وتفكيره خلال مرحلة تكوينه الأولى ، وقبل انضمامه للثورة الجزائرية .

ذلك انه لكي نفهم مدى التأثير الذي احدثته الثورة الجزائرية في فانون.. في نفسيته وفي تفكيره، لا بد من أن نقرأ كتاباته ــ أو نعيد قراءتها حسب تاريخ صدورها اولا بأول ، فمثل هذه القراءة ضرورية لكي نلمس هذا التأثير أولا ، ولكي نعرف مداه ثانيا ، ولكي نستجلي بعد هذا وذاك المراحل المختلفة التي مر بها تفكير فانون منذ ١٩٥٢ الى ١٩٦١ أي منذ صدور كتابه الاول الى حين صدور كتابه الاخير ، مرورا بكتاباته في « المقاومة الجزائرية » وفي « المجاهد » ابتداء من عام ١٩٥٧ .

ان مثل هذه القراءة التي تراعي التسلسل التاريخي ، ضرورية لتتبع الخط البياني للتفكير الفانوني ، خصوصا وان القدر المشترك من العنف في كتاباته قد يجعل الأمر يختلط علينا فلا نحاول تصنيف ألوان العنف الفانوني من جهة ، ولا نحاول من جهة أخرى تبين المواقف الفكرية التي تختلف وأحيانا تتناقض من مرحلة لأخرى .

أول ما يلاحظه القارىء لكتاب « بشرة سوداء ، أقنعة بيضاء » هو حيرة فانون ، أمام الحلول المقترحة آنذاك لتسوية المشكل الذي يعاني

منه وهو المشكل العنصري المعزز ، بالنسبة لشعبه بمشكل استعماري .

فقد كانت أمامه طريقان : أما العمل بجميع الوسائل على أن يصبح رجلا أبيض وأما الانصراف للتغني بالزنوجة واقامة الدليل على تفوق القيم الزنجية والرفض المطلق للقيم البيضاء .

لكن كل واحد من هذين الطريقين يفضي الى مأزق منسد المنافذ . ذلك كان احساس فانون العميق . وقد دفعه هذا الاحساس الى نوع من الحيرة تمثلت في ذلك التساؤل الذي نلمسه بين ثنايا الكتاب والذي يعبر عنه فانون أحيانا بكيفية لا تترك مجالا لتردد أوشك في حيرته الملازمة .

« .. ان الذي يبحث في عيني عن شيء ، آخر غير تساؤل أبدي ، يجب أن يفقد النظر » . بل أن يختم كتابه الأول هذا بقوله :

« ان دعائي الأخير هو :

يا جسمي ، اجعل مني دوما رجلا يتساءل [1] » .

وقد جعلته هذه الحيرة بين المصير الأبيض المستحيل والمستقبل الأسود المسدود يصرخ منذ ١٩٥٢ قائلا :

« لم أصبح بعد أبيض تماما ، ولم أعد زنجيا تماما ، فأنا مسحوق وقد كان هذا الشعور بـ « اللعنة » مضافا الى حيرته ، هو الذي يفسر الى حد كبير طبيعة موقفه في تلك المرحلة الأولى . فهو ليس ثوريا ، لان دعوته لم تكن تندرج في نطاق حركة شعب ، ولا في أي اطار قومي ، لكنه في نفس الوقت كان ثائرا على الأوضاع القائمة ، يرفض التسليم بها ويدعو الى تغييرها .

لقد كان يدعو الى « اطلاق العنان للانسان » . وهي دعوة لا تخلو من فكرة انقلابية ، لكنها في الوقت نفسه لا تندرج في نطاق برنامج عملي

لعمل ثوري محدد داخل اطار فعال أي قومي ، ومرجع هذه الحيرة الفانونية المبطنة بثورة مؤكدة على الأوضاع هو احساس فانون ١٩٥٢ بأن هناك « ملاحظة مهما تكن مؤلمة فلا بد من ابدائها : انه لا يوجد أمام الزنجي الا مصير واحد ، وهو مصير أبيض » [٢] .

الا انه في نفس الوقت كان يشعر بالطابع الاقتصادي للمشكل :

« انه لوهم ومثالية أن ننتظر من الزنجي أو من العربي أن يقوم بمجهود لتبني قيم تجريدية في حين انه لا يكاد يجد ما يمسك به رمق الحياة . ان مطالبة زنجي من النيجر الأعلى بأن ينتعل حذاء والقول عنه بأنه لا يستطيع أن يصبح شوبير ، لا يقل عبثا عن التعجب من كون عامل من عمال رونو لا يخصص أمسياته لدراسة الفن الغنائي في الأدب الهندي أو التصريح بأنه لن يصير أبدأ انشتاين » [٣] .

(يلاحظ هنا بأن فانون تكلم عن « العربي » كما تكلم عن الزنجي . ولفظة العربي كانت تطلق قبل استقلال الجزائر سواء في فرنسا أو في الجزائر على الجزائري وعلى ابناء المغرب العربي وكانت في التعبير الفرنسي الدارج تعني التحقير وكثير ما تتبع بكلمة « بيكو » أو « راتون » . وقد استشعر فانون بمشكل عمال شمال أفريقيا من خلال قراءته لما كان كتبه فرانسيس جانسون عن الجزائر) .

لكن هذا المصير الأبيض ، الذي لا مندوحة عنه للزنجي يصطدم بشكل اللون الذي يذكر صاحبه دائما انه ليس أبيض بل ويكيف تصرفات محيطه .

« .. في القطار بدل ان يتركوا لي مكان أجلس فيه يتركون لي مكانين بل ثلاثة أمكنة .. اذن فوجودي مضاعف ثلاث مرات . أمثل مكانا كبيرا .

.. وهكذا ، نظرا لحيرتي وعجزي عن أن أكـون في الخارج مـع الآخـر ، مع الأبيض الذي يأسرني بدون هـوادة ، أذهب بعيـدا عن كينونتي هذه بعيدا جدا لأصبح شيئا » (٤) ..

واذا كان اليهودي ، يتعرض في الماضي للتمييز العنصري بأروبا ؛ فان مشكلته أهون بكثير من مشكلة الزنجي :

« ان اليهودي يصبح غير محبوب ابتداء من وقت التعرف عليـه . أما بالنسبة الي ّ فليست لي اية فرصة في أن أمـر دون أن أعرف . أنـا محدد من الخارج ، فأنا لست عبدا للفكرة التي يحملهـا الآخرون عني ، لكني عبد لصورة ظهوري (٥) » .

اذن ما العمل ؟

ان الحل لا يكمن في الزنوجة « فالذي يمجد الزنوج لا يقل مرضا عن الذي يكرههم (٦) » .

لذلك يعتقد فانون ان تحـرر الزنجي وتخلصه من المسخ يتطلب الوعي بالحقائق الاقتصادية والاجتماعية (٧) .

الا ان الوعي بالحقائق الاقتصادية والاجتماعيـة لا يندرج عنـد فانون هذه المرحلة في اطار قومي .

فهو اذا كان يسجل بأن مشكل الزنـوج مترتب عن الاستغـلال الرأسمالي الذي « كان أبيض بالصدفة » ، فانه لم يكن يلمس البعـد القومي أي الوطني للمشكل ، ولذلك كان يؤكد :

« ان المارتينيكي « فرنسي » ، وهو يريد ان يظل داخل الاتحاد الفرنسي . ان المارتينيكي لا يطلب الا شيئـا واحدا : هو أن يتـرك المستغلون والبلداء له الحرية في أن يحيا انسانا » (٨) .

فهو هنـا لا يطرح قضيـة العنف من زاويـة الوجود المتميـز

للمستعمرات عن « الوطن الأم » ولكن من زاوية مكانة الفرد المستعمر (بالفتح) داخل الوطن الفرنسي بمعناه الأوسع في حدود ما كان يسمى بـ « الاتحاد الفرنسي » أي بمعناه الاستعمار الكولونيالي .

فالذي كان يهم فانون ليس هو كفاح شعبه من أجل الاستقلال الوطني ولكن هو كفاح الفرد الانتيلي من أجل حياة أفضل في نطاق « الاتحاد الفرنسي » ان فانون هذه المرحلة لم يفكر أبدا في الثورة على الاستعمار الفرنسي بوصفه جهازا متضامنا بكل أشكاله وتلوناته السياسية والاقتصادية والثقافية .

انه كان ينظر الى الاستعمار من الزاوية الطبقية فقط ، مهملا للزاوية الوطنية والقومية : انه في نظره مجرد وضع طبقي يقف فيه العامل المارتينيكي جنبا الى جنب مع العامل الفرنسي ضد البورجوازي المارتينيكي والبورجوازي الفرنسي .

وعلى هذا الأساس يؤكد :

« اني أتصور نفسي عن طيب خاطر مندمجا ومغمورا بالموجة البيضاء التي يشكلها رجال من أمثال سارتر واراغون ، ولن أطلب شيئا آخر غير ذلك » (٩) .

أما تصور وجود وطني متميز عن الوجود الفرنسي فغير معقول :

« اية حكاية هذه هي حكاية الشعب الأسود والوطنية الزنجية ؟ فأنا فرنسي وأهتم بالثقافة الفرنسية ، بالحضارة الفرنسية ، بالشعب الفرنسي ، اننا نرفض أن نعتبر أنفسنا على الهامش . اننا في صميم المأساة الفرنسية » (١٠) .

ثم يشير فانون بعد ذلك الى تطوعه في صفوف الجيش الفرنسي ، خلال الحرب العالمية الثانية فيقول :

« عندما هاجم فرنسا رجال ليسوا أشرارا بطبعهم لكنهم مخدوعون، كانت مهنتي كفرنسي قد دلتني على ان مكاني ليس على الرصيف ، ولكن في قلب المشكل . اني مهتم شخصيا بالمصير الفرنسي ، بالقيم الفرنسية ، فمالي أنا ولامبراطورية سوداء » (١١) .

فموقف فانون من العنصرية ، وعنفه ضدها ، موقف انساني هومانيست ، لا يختلف عن موقف سارتر، وليس موقفا وطنيا . ولهذا لم يكن عنف فانون وصراخه ضد العنصرية البيضاء يقل عن عنفه وصراخه ضد الزنوجة ؛ لان هذا باعتبارها متولدة عن العنصرية البيضاء نقيضة لها ، كانت خالية مثلها من البعد الانساني الهومانيست .

وهذا الموقف الهومانيست ، بمعناه الواسع ، يأخذ عند فانون ما قبل الثورة الجزائرية ، طابعا معينا ويندرج في اطار واحد او وحيد ـ وهو اطار الفكر الغربي والحضارة الغربية .

ففانون الذي لاحظنا ، انه كان في هذه المرحلة الأولى من حياته الفكرية ، ثائرا على الماضي لاسباب شرحنا بعضا منها ، فانون هذه المرحلة لم يكن ثائرا على الماضي كل الماضي ولكنه كان ثائرا على ماض معين هو ماضي المارتينيك وماضي الزنوج بصفة عامة .

« ان اكتشاف وجود حضارة زنجية في القرن الخامس عشر لن يزودني بشهادة على انسانيتي . ان الماضي أردنا أم لم نرد ، لن يستطيع بحال من الاحوال أن يقودني في الحاضر » (١٢) . لكن الماضي الغربي ، لا بأس بتبنيه واحتضانه :

« اني انسان وعلى هذا الاساس تهمني حرب البيلوبونيز وتعتبر ملكا لي مثل اكتشاف البوصلة » (١٣) . وهنا نلمس بوضوح تأثير الفكر الغربي ذي الطابع « الانساني » الذي يتخذ مظهرا رومانطيقيا حالما جذابا

ويحاول ان يبدو منفتحا للجميع ، لكي يتمكن أكثر من احتضان الجميع . وهذا التأثير يسير ، عند فانون هذه المرحلة ـ جنبا الى جنب مع تأثير الفكر الماركسي لان :

« الزنجي الذي يشتغل في مزارع السكر لا يوجد له الا حل واحد هو الكفاح » . لكنه كفاح طبقي « ضد الاستغلال والبؤس والجوع » لا مكانة فيه للشخصية الوطنية أو التاريخ :

« لن يخطر على بالنا أن نطلب من الزنوج تصحيح المفهوم الذي يحملونه عن التاريخ » (١٤) .

« ان بعض الرفاق العمال الذين كانت لي فرصة لقائهم في باريس لم يطرحوا أبدا على أنفسهم مشكل اكتشاف ماضي زنجي . لقد كانوا يعرفون انهم منحدرون من سلالات سوداء ، لكنهم ـ قالوا ـ لن يغير ذلك من أي شيء » (١٥) .

فالتاريخ مثل الثقافة الوطنية لا يلعب أي دور في تغذية الكفاح حسب تقدير فانون هذه المرحلة :

« ان الهند الصيني اذ ثار ، فليس لانه اكتشف ثقافة خاصة به ، ولكن لان التنفس أصبح مستحيلا عليه » .

ان كل ثورة وطنية تهدف في جملة ما تهدف اليه ، الى تحقيق نوع من رد الاعتبار للشخصية الوطنية اعتمادا على تاريخها القريب أو البعيد ، بما يدعم كفاح حاضرها ويحقق الترابط مع أهدافها المقبلة ، هذا الترابط الذي تجد فيه الثورات ذاتيتها وعنوانها وشخصيتها واصالتها .

فبلاد العالم الثالث اليوم تحتاج الى التاريخ ، ليس فقط لكي تستمد منه قوة كفاح ، ولكن تحتاج اليه أيضا لتتمكن من كشف ما قد

يكون خفي عليها من أوجه الاستعمار الحديث الذي يهدد كيانهـا حتى بعد تحقيق استقلالها السياسي •

فالمعركة الدائرة اليوم بين العالم المتخلف والعالم المصنّع ، تحتاج فيها بلاد العالم الثالث الى اعتماد التاريخ للكشف عن ميكانيزم الاستغلال الذي يمارسه الاستعمار الحديث • ذلك ان هـذا الاستعمار الحـديث يعتمد أساسا في استغلاله الحالي لنـا على « شرعية » هي مـن وضع الاستعمار القديم •• فشكل « الشرعية » ومفهومها كلاهما من صياغـة الفكر الغربي الذي واكب الاستعمار القديم وخدمه وأفاد منه •

وبلاد العالم الثالث لا تستطيع أن تكشف عن زيف هذه «الشرعية» الاستعمارية الا اذا رجعت الى ما سبقهـا من أوضاع تاريخيـة تظهـر عدوانها وعدم شرعيتها • لكن هنا يظهر الجانب الثقافي والفكري مـن الاستعمار ليبغضنا في الماضي وفي التاريخ ــ ماضينـا وتاريخنا نحن ــ ويظهره لنا في قالب محنط جامد لا حياة فيه ولا جاذبيـة له •• أمـا الماضي المتمثل في الاستعمار القديـم فهو ماضي غير مدان ويعتبر مرتبطا بحيـاة العصر •

وهذا بالضبط ما نلمسه في كتابات فانون ما قبل الثورة الجزائرية•

« هل سأطلب من الرجـل الأبيض اليـوم ان يكون مسؤولا عن معاملة أسلافه للزنوج في القرن السابـع عشر ؟ هـل سأبحث بجميـع الوسائل عن خلق الشعور بالذنب في الأرواح » (١٦) •

« اني لا أملك الحق في أن أترك نفسي تنزلق بحتمية الماضي » •

نعم ان موقف فانون هنا يمكن ان يفهـم من منظور فلسفـي تجريدي خالص يلغي حدود الأوطان والقوميات والثقافات ، ولا يعتبر غير الانسان •• فحسب هذا المنظور يكون الانسان من حيث هو ، هو

الميدان ، ما دام قد سمح باضطهاد أفـراد من بين جنسه .. لكن هـذا الموقف « الانساني » هل يتلاءم مع طبيعة الصراع الذي تخوضه شعوب العالم الثالث اليوم ؟

ان فانون هذه المرحلة يؤكد لنا بكل الحاح :

« اني لست أسير التاريخ . ولا ينبغـي أن أبحث فيه عن مغـزى مصيري » . لان فانون هذه المرحلة لم يكن قـد أحس بالاستعمار الا من خلال موقف عنصري من جهة ، وطبقي من جهة ثانية . والموقفـان كلاهما خاليان من حدود الذات الوطنية التي تميز ذات المستعمر (بالفتح) عن ذات المستعمر (بالكسر) وبالتالي ينعدم كل وزن للتاريخ . ومن هنا انعدم عند فانون ـ في هذه الفترة دائما الشعور بترابط استعمـار الماضي مع استعمار الحاضر . ولم يستطع أن يرى المشكل الحقيقي لان المشكل الحقيقي لا يتمثل فقط في ان كائن المستعمرات هو فقط الـذي يلتفت الى الماضي ، لكنه يتمثل أيضا وعلى الخصوص في ان الكائـن الاستعماري هو الذي يريد باستمرار أن يعتمد على الماضي ماضيـه ، لتبرير حاضره على حساب الغـير . فالنضال السياسي الذي يعتمـد الماضي ، ليس موقفا جامدا ، ولكنه موقف حركي ، لانه يدفع النضـال في الحاضر ويغذيه ويحركه . وهو لذلك موقف ايجابي في مواجهة الكائن الاستعماري الذي يحاول باستمرار أن يحتقر ماضي الكائن المستعمـر (بالفتح) في نفس الوقت الذي يعتز فيه بماضيه الاستعماري ويعتبره مصدر تبرير لحضارته وأساسا لشرعيته .

ولهـذا كان أطراح الماضي من طرف المستعمَر يعني دعـم حاضر الكائن الاستعماري والذوبان فيه ، وهذه بالضبط هي المعادلة التـي يريد الاستعمار أن يضمن بها استمرار وجوده في أشكال مختلفة ، فمـا دام كائن المستعمرات قد ألغى الماضي ، سلبية وايجابية واداتـه جملـة

واحدة كما يفهم من موقف فانون ، فماذا يبقى له ؟ لا شيء لان الحاضر ملك للكائن الاستعماري. على ان الذي يساعد علىغموض هذه النقطة بالذات ، هو ان اطراح الماضي فكرة مغرية ، تحمل بريق التجديد ، وربما تكتسي مظهرا ثوريا، وتعني في بعض وجوهها التقدم واللاجمود. لكن هناك حقيقة أساسية يجب اثباتها في هذه الحالة ، وهي ان الحاضر الوحيد الذي يعتمده كائن المستعمرات هو الحاضر الاستعماري . صحيح انه يفعل ذلك باسم حاجته الى التقنية الا ان ذلك لا ينزع شيئا من جوهر المشكل فالتقنية تستتبع ـ اذا تم طرح الماضي طرحا كليا ، واذا أهمل البعد التاريخي من حياة شعب ما ـ تستتبع وتستلزم تبني ثقافة المستعمر بجميع مظاهرها وأشكالها . وذلك يؤدي عمليا الى توفير شروط تحقيق الاندماج الذي ما انفك من أعز احلام الاستعمار الفرنسي .



ان النصوص السابقة التي استشهدنا بها من كتابات فانون ، يمكن أن تعتبر هي نفسها دليلا عمليا على مدى ترابط الثقافة الغربية مع الاستعمار الغربي . فالفلسفة الانسانية الغربية اذا كانت قد ساعدت على تحرير الكائن الأروبي ، فانها قد ساعدت على استرقاق الانسان غير الأروبي واستعماره . واذا كان الغرب يفخر علينا بمنجزاته الاقتصادية في المستعمرات ، فاننا نستطيع ان نسأله : ماذا عمل من أجل أنسان المستعمرات ، من أجل تثقيفه ؟ بل ان الغرب عمل باستمرار على محق الثقافات الوطنية ، حتى لا تلعب أي دور في مواجهة الاستعمار .. وما قامت به فرنسا في الجزائر أحسن دليل على ذلك ولا شك ان الفلسفة الانسانية الغربية لا تخلو من اغراء : فمن ذا الذي يثبت امام اغراء

الدعوة الى تحرير الانسان •• وهذا الاغراء يكون أشد في حالة انعدام ثقافة وطنية حتى يبلغ درجة التنكر لكل ماضي غير الماضي الغربي ، وهو يتعزز عند فانون بفعل انعدام ماضي وطني وتاريخ حافل للمارتينيك وبفعل دعوة « لا حدود الثقافة » و «لا وطنية الفكر » ••

وقد استمرت هذه النظرة عند فانون الى ١٩٥٥ تقريبا ، اذ نجدها في بعض كتاباته التي نشرت في كتاب « من أجل الثورة الافريقية » (عام ١٩٦٤) لكن تاريخ كتابتها يرجع الى ما قبل احتكاكه بالثورة الجزائرية• ومن بين هذه المقالات التي صدرت قبل احتكاكه بالثورة الجزائرية ، مقال بعنوان « المرض الشمال الافريقي » • فعلى الرغم من ان هذا المقال يتعرض لتحليل نظرة الاطباء الفرنسيين الى عمال المغرب العربي ، فانه لم يستطيع أن يكشف الجانب السياسي في هذه العلاقة كما يجب ، لسبب بسيط هو ان المقال كتب في عام ١٩٥٢ (نشر في مجلة أسيري الصادرة بتاريخ فبراير ١٩٥٢) ولذلك نجد ان خاتمته لا تختلف عن خاتمة « بشرة سوداء ، أقنعة بيضاء » نفس الطابع الانساني الهومانيست ، نفس النظرة الفردية الى الانسان :

« لا تجبرني على أن أقول لك ما كان يجب أن تعرفه يا سيد ، فاذا كنت لا تطلب الانسان الذي هو أمامك فكيف تريد مني أن افترض بأنك تطلب الانسان الذي هو فيك ؟•• اذا أنت لم تكن تطلب الانسان بالحاح اذا أنت لم تضح بالانسان الذي هو فيك من أجل أن يكون الانسان الذي هو فوق هذه الأرض شيئا آخر غير جثة ، شيئا آخر أكثر من « محمد » فباية معجزة أقتنع بأنك أنت الآخر جدير بحبي » (١٧) •

وهذه النظرة الفردية الى الانسان ، مجردا من لقبه الوطني قد تكون مفهومة في نطاق الغرب لان الغرب عندما أقر فلسفته الانسانية

هذه في تمجيد الفرد كان قد حقق كياناته القومية وقطع في ذلك أشواطا .. أما كائن المستعمرات فلا يستطيع أن يفعل ذلك دون أن يجعل تحرير الأرض وتحقيق القومية شرطا مسبقا .

لكن فهم « فانون ما قبل الثورة الجزائرية » قد لا يتم دون ان نقرأ مقالا له نشر في عدد فبراير ١٩٥٥ من مجلة « اسبري » وعلى الرغم من ان هذا المقال كتب ـ حسب مايفهم من احدى فقراته عام ١٩٥٢ ـ فان نشره في عام ١٩٥٥ يدل على استمرار هذا اللون من التفكير عند فانون الى هذه السنة على الأقل .

فقراءة هذا المقال ، بالاضافة الى انها تؤكد بعض ما كنا أسلفناه تعطي لنا اضاءة جديدة للتفكير الفانوني في هذه المرحلة قد تساعدنا على فهمه أكثر اذ نستطيع ان نستخلص من هذا المقال الحقائق التالية :

فانون ينكر وجود « الشعب الزنجي » (هو في هذا على حق) .

فانون يعتبر ان فكرة (الشعب الزنجي) « تهدف الى محاولة الانتزاع من الزنوج لكل محاولة تعبير فردي » .

استمرار فكرة الطبقة حسب المفهوم الماركسي التقليدي دون اعتبار للبعد الاستعماري . فهو يقول : « ان الزنجي العامل سيكون الى جانب الهجين العامل ضد الزنجي البورجوازي » .

هذا المقال يشرح لنا الفرق الذي كان موجودا بين وضعية الزنجي الانتيلي « وبالتالي المارتينيكي » ووضعية الزنجي الافريقي . وهو فرق يدعمه أمران :

الاول : شعور داخلي من طرف المارتينيكي بتفوقه على الزنجي غير المارتينيكي .

الثاني : نوع المعاملة التي يعامل بها كل من المارتينيكي والافريقي في الاطار الفرنسي .

فيما يتعلق بالنقطة الاولى التي نجدها واضحة في مقال فانون هذا وخاصة عند قوله : « قبل ١٩٣٩ كان الانتيلي يقول عن نفسه انه سعيد أو على الاقل كان يعتقد ذلك فقد كان يقوم بعملية التصويت في الانتخاب وكان يتردد على المدرسة عندما يقدر على ذلك ، ويتبع المسيرات الدينية ، ويحب شراب « الروم » ويرقص البيغين والذين حظوا بامتياز زيارة فرنسا كانوا يتحدثون عن باريس وعن فرنسا والذين لم يحظوا بذلك كانوا يحلمون بها .

وكان هناك أيضا الموظفون الذين يشتغلون بافريقيا . كانت أفريقيا تظهر من خلال تصورهم وتصويرهم بلد الوحوش .. الأهالي .. الخدم .. يجب ان نقول الاشياء كما هي اذا أردنا ان لا نزيف المشكل. فالموظف الفرنسي العائد من أفريقيا عودنا على كليشيهات معينة :

السحر ، التمائم ، الطام طام ، الطيبة ، الوقاء ، احترام الأبيض ، التخلف ...

والمأساة ان الموظف الانتيلي لم يكن يتحدث عن أفريقيا حديثا مختلفا عن هذا ، وبما ان الموظف ليس هو فقط حاكم المستعمرات ، ولكن هو أيضا الجندرمي ، والديواني العسكري ، فقد أدى ذلك الى أن يتكون على جميع مستويات المجتمع الانتيلي شعور بالتفوق على الافريقي ، لقد كان الجميع قبل ١٩٣٩ مقتنعين ليس فقط بالتفوق على الافريقي ، ولكن بوجود فارق أساسي ، فالافريقي زنجي ، أما الانتيلي فهو أوروبي » (١٨) .

وعن الأمر الثاني الذي يدعم الفرق بين الانتيلي والافريقي ، يقول فانون :

« قبل ١٩٣٩ كان الانتيلي المتطوع في جيش المستعمرات يشغل في وحدة أوروبية سواء كان قارئا أو أميا ، بينما كان الافريقي ــ باستثناء الذين هم من أصل الاقاليم الخمس ــ يشغل في وحدة عسكرية من الاهالي » •

ويعقب فانون على ذلك بقوله : « ان الانتيلي لم يكتف بشعور التفوق على الافريقي ، بل كان يحتقره ، واذا كان الأبيض يسمح لنفسه ببعض التنازلات مع الأهلي (الافريقي) فان الانتيلي لم يكن يستطيع أن يفعل ذلك ، اذ انه لم تكن هناك حاجة للتذكير بالفرق بين الأبيض والافريقي ، فالفرق واضح للعين ••• لكن يا لها من مأساة لو أعتبر الانتيلي أفريقيا » •

وفي نفس المعنى يقول فانون في مكان آخر : « كان الأدب الانتيلي ــ قبل سيزير أدب أوروبيين • كان الانتيلي يعتبر نفسه أبيض، ويتخذ موقفا أبيض •• كان أبيض » •

ان هذه الفقرات التي يسوقها في مقاله عن الانتيلي والافريقي ، قد تساعدنا على تبين أحد العوامل التي تشرح لماذا كان فانون يعتبر نفسه أوروبيا أكثر من أي شيء آخر •

صحيح ان فانون لم تكن له نظرة الانتيلي العادي الى الافريقي•• لم يكن له شعور التفوق على الزنجي الافريقي ، حتى في هذه المرحلة من تفكيره • فقد كان من أنصار المساواة ••• الا انه كان يرى المساواة من المستوى الأوروبي • أي ان « الثورة » التي كان يتصورها فانون ، قبل تعرفه على الثورة الجزائرية ، كانت موقفا فرديا يؤدي الى حل

المشاكل في نطاق وجود أوروبي ، أي فرنسي ، وليس في نطاق استقلال وطني •

والذي يهمنا في هذا المقال ليس هو التطور الذي أحدثه سيزير في المجتمع الانتيلي ، لكن هو الوضع الذي عرفته جزيرة المارتينيك قبل ذلك ، والذي يلقي مزيدا من الضوء على موقف فانون وتصوره لحل المشاكل المتصلة بالعنصرية • ففرانز فانون اذا كان يدين عند الانتيلي شعور التفوق على الافريقي ، فانه كان يدين أيضا التحول الذي وضح بعد ذلك في المجتمع الانتيلي وكان يعتبره « السراب الزنجي الأكبر » •

ومعنى ذلك ان فانون لم يتخل الى عام ١٩٥٥ ـــ وهو عام نشر هذا المقال ـــ عن موقف الأوروبي وعن ايمانه بالقيم الغربية •

ولهذا نستطيع ان نلحق مقالات القسم الأول من كتابه « من أجل الثورة الافريقية » الذي نشر بعد موته ، بكتابه « بشرة سوداء أقنعة بيضاء » لانها تنطلق من نفس المفهوم •

اذاً فقد كان فانون ، قبل الثورة الجزائرية ، وحتى بعد قيامها ولكن قبل ان يحتك بها احتكاكا عميقا ، يعتبر ان حل المشكل العنصري مثل مشكل الاستقلال لا يمكن ان يتحقق الا في النطاق الفرنسي •

ولا شك ان مثل هذا الموقف كان محكوما عليه بان ينتهي الى طريق مسدود ، لانه تجاهل التناقض الاساسي الذي تتضمنه المسألة الاستعمارية •

لقد تعجب بعض الجزائريين ، عندما أثيرت في عام ١٩٦٣ مناقشات ذات طابع ثقافي ، ورد فيها ذكر فانون • فقد أكد الاستاذ الاشرف في مقال له [١٩] ان فانون قال له : « بعد كل شيء أنا أوروبي ••• ومن الطبيعي أن لا أرى المشاكل بنفس المنظور الذي ترونه منه أنتم » [٢٠] •

وبعضهم ذهب الى حد اتهـام الاستاذ الاشرف بانه تقـول على فانون ـ يرجع الى الصورة التي تكونت خلال حـرب التحرير وبعـد الاستقلال ، والى تقبل تلك الصورة تقبلا كليـا دون اتخـاذ أي موقف نقدي • ولا شك ان النصوص التي أوردناها من كتابات فانون في تلك المرحلة ، تعزز ما قاله الأشرف ، وتؤكد ان فانون ، قبل اندماجه في الثورة الجزائرية ، ظل ينظر الى مشكل المستعمرات من منظور أوروبي •

وذلك ما يفسر تلك الحيرة وذلك التساؤل الذي لازم فانون خلال المرحلة الأولى من مراحل تكوينه الفكري •



وباختصار ان فانون « بشرة سوداء أقنعة بيضاء » حاول أن ينير لنا تصرفات الزنجي المستعمَر أمام القيم الاستعمارية • وقد وصف هذه التصرفات وصفا نفسيا ، مما دفعه الى البحث عن حل لها في علم النفس• ومن هنا نجد ان الأدوات التي يستعملها في هذا البحث ، ليست أدوات تحليل علمي ، عملي ، تستند الى وقائع مادية محـددة ، ولكنها أدوات مثقف لا منتمي ، يبحث عبثا عن حل نفسي لمشكل هو استعمـاري في جوهره • ومن هنا كان اتجاهه تلك الوجهة الليبرالية ، وكانت غفلته عن تبين حقيقة مدار الصراع •

على ان اللهجة التي استعملها فانون في ذلك الكتاب ، جعلته يبدو في مظهر الثوري في حين انه لم يكن الا ثائرا ثورة مثقفين مثاليين، ونظرا لاستعماله بعض أدوات التحليل الماركسي فقد تأكد عمليـا انتماؤه الى ذلك الوسط من أوساط اليسار الفـرنسي الممزق بين البورجوازيـة الليبرالية ، والماركسية الجديدة (آنذاك) والوجودية •

ولو ان فانون كان أبيض لاستمر انسجامه مع هذا الوسط •

لكن لونه كان باستمرار يذكره بأنه اذا كان يريد الافادة فانمكانه ليس الى جانب المثاليين الذين يكتفون بادارة النقاش في صالونات ليون أو مقاهي الحي اللاتيني •

وقد بدأ فانون يتحسس هذه الحقيقة منذ احتكاكه بأوساط المرضى العمال من أبناء الشمال الافريقي الذين كانوا يشتغلون بفرنسا•

وقد أتاحت له صداقة فرانسيس جانسون ، الذي اتصل به عندما اعتزم طبع كتابه الأول كما أتاحت له قراءة بعض ما كتبه جانسون ، عن المشكل الجزائري قبل ١٩٥٤ أن يتعرف على نفسه أو جزء منها على الأقل ، في انسان شمال أفريقيا • وقد لاحظنا آنفا كيف ان فانون قد ذكر « العربي » الى جانب الزنجي نتيجة هذا الاتصال المزدوج ببعض حقائق المغرب العربي •

لذلك فكر في الالتحاق بالجزائر ، بعد أن انسد في وجهه العمل بقطر من أقطار أفريقيا السوداء •

وكان عمله في الجزائر ، منذ ١٩٥٣ نوعا من التجسيم للمرحلة الانتقالية التي كان يمر بها فانون ، بين التفكير في اطار استعماري صريح الى التفكير في اطار مناهض للاستعمار مناهضة كلية •

انه بعد اليأس من المصير الأبيض ، ومن « السراب الأسود » لا بد ان يبحث عن حل آخر •

هنا اندلعت الثورة الجزائرية في نوفمبر ١٩٥٤ •

ولا شك ان فانون قد فوجىء في جملة من فوجىء باندلاع هذه الثورة • فقد كان كل شيء يبدو هادئا بالجزائر • وكان ذلك الهدوء ـ الذي يميزها عن تونس والمغرب يكاد يؤكد النظرية الاستعمارية القائلة بأن « الجزائر فرنسية » •

ولا شك ان احتكاك فانون قبل نوفمبر ١٩٥٤ ببعض الأوساط الأوروبية في الجزائر من جهة وببعض أوساط النخبة الجزائرية من جهة أخرى ، لم يساعد على اعداده لتقبل هذه الثورة من أول يوم •

وعلى الرغم مما قالته زوجة فانون وعلى الرغم مما يؤكده أخوه الأكبر [٢٢] فان فانون لم يكن على علم بالاعداد للثورة المسلحة . لانه أمام انعدام شهادات رجال أول نوفمبر ، لا يسعنا الا أن نحتكم لكتابات فانون وأقواله • وكتاباته وأقواله ، ظلت الى ١٩٥٥ تؤكد تمسك فانون بالاطار الفرنسي •

وكما قلنا قبلا فانه لا ينقص من قيمة فانون الفكرية ، أن لا يكون من بين رجال أول نوفمبر •

الا انه لم يكن ممكنا ان يستمر فانون في تمسكه بالاطار الفرنسي، بعد قيام الثورة الجزائرية •

فقد أضافت هذه ، علامات استفهام كبرى ، الى التساؤل الذي ظل يلازمه : كيف استطاع هذا الشعب أن يصمد ؟

ثم فوجىء فانون بالحقيقة تبرز ، واضحة بسيطة : المدنيون الأوروبيون يسلحون ويساهمون في العمل ضد الثورة •

جميع المدنيين الأوروبيين وهم أكثر من مليون بما فيهم العمال ، وصغار التجار ، والحرفيون وعمال المزارع (أما الأوروبيون الذين لهم موقف آخر ، ليبرالي ، فهم أفراد قلائل) •

فأين هو ما كان يعتقده فانون وما كان يعتقده اليسار من وجود تضامن طبقي بين العامل « الاهلي » والعامل الأوروبي ؟

وتأتي انباء مجازر عشرين أوت ١٩٥٥ تحمل أخبار التقتيلات

الجماعية للجزائريين : عسكريون فرنسيون يدمرون المدائن والقرى بالطائرات .. ومدنيون أوروبيون يقتلون في الشوارع، المارة الجزائريين ويلاحقونهم في البادية ويتمتعون برؤيتهم يتساقطون ، كما لو كانوا يتفرجون على مشهد صيد .

وتتابعت أخبار القمع بعد اعلان حالة الطوارىء ، منذ ربيع ١٩٥٥ : الاضطهاد ينتشر شيئا فشيئا حتى يشمل كامل البلاد . والمدنيون الأوروبيون ، بجميع قطاعاتهم يطالبون بمزيد من الشدة ومزيد من القمع .

أين هي عواطف الانسانية فيهم ؟ كيف يستطيع الأوروبي الصغير عاملا أو تاجرا أو فلاحا أن يتخذ هذا الموقف ويغفل عن مشاهدة بؤس الجزائريين ؟.

شيء ما في تفكير اليسار ، ليس على ما يرام .

خلل ما ولا شك ، يوجد في الفكرة التي اعتنقها فانون ، في نطاق اليسار ، وفي الاطار الفرنسي . يجب ان يبحث حتى يكتشف الحقيقة . كانت بداية ، خرج بها فانون من التساؤل الأصغر الى التساؤل الأكبر . من التساؤل عن مصير الانسان الفرد ، الى التساؤل عن مصير الوطن .

---

(١) فرانز فانون
(٢) نفسه . ص ٢٨ .
(٣) نفسه . ص ٩٧ .
(٤) نفسه . ص ١١١ .
(٥) نفسه . ص ١١٣ .
(٦) نفسه . ص ٢٦ .
(٧) نفسه . ص ٢١٧ .

(٨) نفسه . ص ١٨٣ .
(٩) نفسه . ص ١٨٤ .
(١٠) نفسه . ص ١٨٤ .
(١١) نفسه . ص ١٨٤ .
(١٢) نفسه . ص ٢٠٢ .
(١٣) نفسه . ص ٢٠٣ .
(١٤) نفسه . ص ٢٠٢
(١٥) نفسه . ص ٢٠٣ .
(١٦) نفسه . ص ٢٠٦ .
(١٧) فانون ـ من اجل ثورة افريقيا ، ص ٢٥ (هذا المقال غير موجود في الطبعة العربية التي ترجمناها ، لاننا كنا نعتبر ان كتاباته قبل اندماجه في الثورة الجزائرية ، ذات علاقة بعيدة بالثورة الافريقية) .
(١٨) نفسه . ص ٢٩ ـ ٣٠ .
(١٩) نشر في عدد الثورة الافريقية الصادرة بتاريخ ديسمبر ١٩٦٣ .
(٢٠) مصطفى الاشرف ، الثورة الافريقية ، عدد ٤٦ ـ ديسمبر ١٩٦٣ .
(٢١) بوفييي . فانون . ص ٣٢ .
(٢٢) نفسه . ص ٤٩ .

- ٤ -

الرحيل

لم يكن التساؤل عند رجل مثل فانون متعة فلسفة أو مضغ كلام ، فطبيعة فانون الميالة الى العمل ، وجهت ذلك التساؤل نحو البحث عن مجالات العمل الفعلي والممارسة الجدية ، بدل أن تفضي به ــ كما يحدث كثيرا ــ نحو متاهات وسراديب نظرية .

ولم يكن من محض الصدفة ،ان تكون أول دراسة نظرية مطولة ، قام بها فانون ، بعد تفرغه للعمل في صفوف الثورة بصفة عامة ، وللتحرير في « المجاهد » بصفة خاصة ، هي سلسلة مقالاته بعنوان : « المثقفون والديموقراطيون الفرنسيون أمام الثورة الجزائرية » [1] .

صحيح انه كتب قبل ذلك مقالات أخرى ، لكن معظمها كان عبارة عن تعاليق آنية أو افتتاحيات ظرفية ، وباستثناء مقال « حقيقة وأوهام الاستعمار الفرنسي » ومقال « الجزائر أمام الجلادين الفرنسيين » (وكلاهما نشر في العدد العاشر بتاريخ سبتمبر ١٩٥٧) فان بحثه عن اليسار الفرنسي الذي نشر على ثلاث حلقات في الأعداد الصادرة بتاريخ أول و ١٥ و ٣٠ ديسمبر ١٩٥٧ يعتبر هو أول بحث هام يعيد النظر في اليسار الفرنسي الذي كان فانون ينتمي اليه .

ويكتسي هذا البحث أهمية خاصة ، لان فانون كتبه في ظرف كان يدعو فيه الى ضرورة تفرغ عدد من المثقفين الجزائريين للعمل الفكري ،

وضرورة الانقطاع عن كل شيء والانعزال عن العالم الخارجي لدراسة التجربة الجزائرية •

قلنا : لم يكن من محض الصدفة ان يصدر ذلك البحث في تلك الفترة بالذات ، لانه كان في الواقع نتيجة عاملين :

– كانت الثورة الجزائرية في بداية عامها الرابع ؛ وكان لا بد من مناقشة اليسار الفرنسي بعض القضايا الاساسية : خصوصا وان المشاكل المتصلة بالعلاقة بين اليسار وبين الوطنيين الجزائريين لها تاريخ طويل • فمثل هذا المقال كان لا بد ان يكتب •

– كان فانون ، وقد مضى على التحاقه بصفوف الثورة كليا نحو عام : هو المؤهل لكتابة مثل هذا المقال ؛ لانه كان – قبل ذلك – يقف في صفوف هذا اليسار وينطلق في تفكيره من نفس منطلقه الفرنسي الأوروبي • فقد كان يعرف اذن نقط ضعفه التي ازدادت انكشافا وافتضاحا لنظره بعد أن أصبح يقف على أرض ثورية صلبة •

ويمكن القول دون مبالغة بان هذه المقالات الثلاث ، ضد اليسار ، تسجل بداية ثورته ضد المفاهيم التي كان يؤمن بها حتى ذلك الوقت • فهي ليست عبارة عن مجرد تسجيل لخيبة أمل فانون في اليسار الفرنسي• صحيح انها لا تخلو من هذا المظهر الانفعالي المتشنج ، لكنها تعكس في نفس الوقت ، بدء اندماج فانون في الثورة الجزائرية ، وبدايات شعوره بالانتماء الى حركة متمايزة ، متكاملة ، مستقلة ، وليست مجرد تيار يمكن أن يقف على صعيد واحد مع تيارات اليسار الفرنسي •

لكن العلاقة بين الثورة الجزائرية وبين اليسار الفرنسي ، لها تاريخ يمتد الى ما قبل هذه الفترة بكثير •• •انه تاريخ قديم ، لانه عمليا عبارة عن امتداد للعلاقة بين اليسار الفرنسي من جهة ، وبين الجزائر وحركاتها الوطنية من جهة أخرى •

لكن تاريخ هذه العلاقة ، ومختلف الهزات التي تعرضت لها ، وطابع الوصاية الذي ما انفك يطبع نظرة اليسار الفرنسي الى الحركات الوطنية، وثورة هذه الحركات على هذه النظرة ـ كل ذلك لم يكن معروفا •• الى أن جاء فانون في الابان ، ليصوغ بقلمه البليغ ، ونفسه المنفعلة ادانة اليسار الفرنسي في قالب جديد •

لذلك لا ينبغي ان نستغرب اذا لاحظنا بان كثيرين ممن كتبوا عن فانون ، أخذوا كتاباته هذه ، على انها هي التي كانت ذات تأثير فعال في الثورة الجزائرية وفي توجيهها نحو ذلك الاتجاه الراديكالي الصلب • في حين ان استعراض علاقة فانون باليسار الفرنسي قبل حرب التحرير الوطني من جهة ، واستعراض علاقة هذا اليسار مع الحركات الوطنية الجزائرية من جهة ثانية ، كفيل بان يظهر لنا ان التأثير هنا كان يسير في اتجاه معاكس : أي ان الثورة الجزائرية هي التي أثرت في فانون ، حتى في هذا الموضوع •

ان مقالات فانون في اليسار الفرنسي ، لم تكن تعكس تطور علاقة بين فانون واليسار ، ولكنها كانت تعكس تطور علاقة اليسار ونظرته الى الثورة متخوفا من تطوراتها ، كما تعكس تطور الخط الفكري لفانون ، منفعلا بالثورة الجزائرية في نفس الوقت •

تلك هي الحقيقة التي ينبغي أن نفهمها اذا أردنا استجلاء مدى تأثير الثورة الجزائرية في فانون وفي تكييف نظرته الى اليسار •

كانت علاقة فانون باليسار الفرنسي ، قبل الثورة المسلحة ، علاقة طبيعية ، عادية ، ذلك ما كانت تقتضيه طبيعة اليسار الفرنسي ، وطبيعة التكوين الفكري لفانون قبل ١٩٥٤ ، والدعوة الأساسية التي نجدها عند فانون « بشرة بيضاء أقنعة سوداء » هي دعوة الزنجي « الى أن يتحرر من نفسه ومن الاستغلال » •

والزنجي المقصود بدعوة التحرر الذاتي هذه ، ليس هو بالطبع زنجي الاحراش الذي يعيش بعيدا عن الاحتكاك بالحضارة البيضاء ، ولكن هو الزنجي الذي له اتصال مباشر بالرجل الأوروبي الأبيض ، الزنجي الذي يعيش في محيط أبيض ... سواء كان هذا المحيط في عواصم « الوطن الأم » أو عواصم البلاد المستعمرة .

ذلك أن الزنجي ــ مثقفا كان أو غير مثقف ــ الذي يعيش متصلا بمحيط أوروبي أبيض ، يفكر ويشعر ويتحرك دائما بالنسبة للأبيض ... وسواء كانت علاقة الزنجي بالمحيط الأبيض علاقة عداء أم علاقة عادية ، فانه لا ينظر الى ذاته مجردة من نسبتها الى الأبيض تفكيرا أو عملا أو سلوكا أو رد فعل .

وهذا بالضبط ما كان يثير فانون في منتصف هذا القرن .

انه يريد للزنجي المثقف ان يتحرر من هذه النسبية التي تحكم عليه بالتبعية الى الأبد .. يريد له أن يكون تفكيره وعمله ورد فعله منطلقا من ذاته بقطع النظر عن أية نسبة للأبيض . وبعبارة أخرى انه يريد للرجل الزنجي أن يصبح رجلا « سليما » من وجهة النظر الطبية النفسية .

ولا شك ان مثل هذه النظرة ، الى مشكل الرجل الزنجي ليس فيها ما يتناقض مع منظور اليسار الفرنسي في الخمسينيات .

فالصحة الطبية ــ النفسية التي يريدها فانون للزنجي ، لم يكن المقصود بها ــ آنذاك ــ هو صهر انسان يناضل بالسلاح ضد الاستعمار، فانون لم يكن يطرح آنئذ قضية الكفاح المسلح بل هو لا يزيد على ان يتبنى الافكار الانسانية حسب منظور الهيومانيزم الغربي .

كل هذا من شأنه أن يجعل العلاقة بين فانون واليسار الفرنسي علاقة طبيعية ، يسودها الانسجام .

خصوصا وان دعوة فانون للحرية تتعلق بالحاضر ، ولا تدعو الى اعادة النظر في الماضي بهدف كشف جرائم الاستعمار ازاء الشعوب المضطهدة . فاليسار الفرنسي ما انفك مجمعا على التثبت بفكرة «ايجابية الاستعمار » واذا كانت هذه الفكرة محل نقاش الآن بعد استقلال مستعمرات عديدة ، فانها كانت في الخمسينات فكرة مسلما بها ، ولم يكن الفرنسي آنذاك يسمح باعادة نظر كلية في هذا الماضي على أساس اداتته ادانة مطلقة .

صحيح ان فانون في تلك المرحلة كان يدعو الى تغيير الهياكل الاجتماعية ــ وهي دعوة لا تتناقض أيضا مع دعوة اليسار ــ لكنه كان يعتبر تطوير وضعية الفرد الزنجي نفسيا من الداخل ضرورية ، اذ بدونها لا يمكن للهياكل الاجتماعية أن تؤتي نتيجتها .

على ان دعوة فانون الى الحرية في هذه المرحلة ، كانت دعوة أما محددة جدا تقتصر على الفرد ، أو عامة جدا تشمل مجموع الانسانية . فهي لذلك لا يمكن الا أن تروق لليسار الفرنسي ، لانها لا تطرح أمامه قضايا ومشاكل محددة ، مجسمة ، مثل التي طرحتها عليه حرب التحرير الجزائرية فيما بعد .

لذلك لم يكن النقاش حول هذه القضايا ، في منتصف هذا القرن ، داخل أوساط اليسار الفرنسي ، الا نوعا من الجدل النظري الذي يريح الضمير ، ولا يكلف عناء .

أما العلاقة بين اليسار الفرنسي وحركة التحرر الوطني في الجزائر فلم تكن بمثل هذه البساطة ، لان القضية هنا لا تتصل بالعلاقة بين فرد وتيار فكري ــ سياسي، ولكنها تندرج في اطار العلاقة بين بلدين يستعمر أحدهما الآخر .

ان صفة الاستعمار هنا تزيف كل علاقة يمكن أن توجد بين اليسار الفرنسي ــ الذي هو فرنسي قبل كل شيء ــ وبين حركة التحرير الوطني بالجزائر ، التي هي جزائرية قبل كل شيء • فمهما تكن عوامل التضامن موجودة موضوعيا ، فان التصادم الحتمي بين المستعمِر والمستعمَر من شأنه ان ينعكس على العلاقة بين اليسار الفرنسي وحركة التحرر الوطني •

ففي الوقت الذي بدأت فيه حركة التحرر الوطني بالجزائر ، تطرح شعار الاستقلال كان اليسار الفرنسي أبعد ما يكون عن هضم هذا المطلب •

فقد كان الحزب الشيوعي الفرنسي ــ أقصى اليسار آنذاك ــ يرى ان هناك ــ « أمة جزائرية بصدد التكوين تاريخيا ، ويمكن لمجهود الجمهورية الفرنسية أن يساعد ويسهل تطورها (٢) » •

وردت هذه الفكرة في خطاب لموريس طوريز ، ألقاه بالجزائر في ١١ فبراير ١٩٣٩ وقد تكررت في خطابه أمام المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي الفرنسي (٣٠ ــ ٢٦ جوان ١٩٤٥) بل اننا نجد في المقدمة التي كتبها ليون فيكس لنصوص موريس طوريز عن الجزائر التي نشرت بعد مارس ١٩٦٢ ، تقييما غريبا لحركة التحرر الوطني الجزائري ، اذ يقول فيه ما تعريبه :

« تأسس الحزب الشيوعي الجزائري في ١٩٣٦ • لكن الحركة الجزائرية المناهضة للاستعمار كانت في أغلبيتها الساحقة تعيش فترة تعثر• فقد كان عدة مثقفين ذوي تكوين فرنسي ، يدافعون عن مواقف اصلاحية ليست لها أفاق وطنية وكان هناك عناصر أخرى تجمعت في حركات سياسية أو دينية ، تساند مفاهيم وطنية ضيقة الأفق وغير متفهمة للخطر

الفاشي الذي كان يتهدد الجزائر وتونس والمغرب كما كان يتهـدد فرنسا وبقية العالم : على أيدي هتلر وموسولوني وفرانكو »[٣] •

والذي يهمنا مـن هذه الفكرة هنـا ، هو صف الحركات الوطنية الجزائرية بأنها « وطنية ضيقة الأفق » لماذا ؟ لانها لم تكن تولي للدفـاع ضد النازية نفس الاهتمام الذي كان يوليه الحزب الشيوعي الفرنسي ، كما لو كان من المعقـول مطالبـة الجزائريين ـ وهم مستعمَرون ـ بأن يهتموا بمصير فرنسا قبل مصير بلادهم •

ان خطر الفاشية هنا موجود فعلا •• وكان يتهدد فرنسا • لكـن الجزائر كانت مستعمرة وكانت محكومة بالحديد والنار من طرف استعمار مباشر اسكاني عنصري بليد ، وكما يقول الشاعر العربي : « أنا الغريق فما خوفي من البلل » •

بل ان الخطر الفاشي الذي كان يتهدد فرنسا قبيل الحرب العالميـة الثانية ، كان في نظر معظم الجزائريين عامـل اضعاف لفـرنسا •• وهي عدو •• وكل اضعاف للعدو منظور اليه بعين الرضا •

ولذلك لم يفهم الجزائريون ــ الذين كانوا يقرأون العربية ويتابعون صحف الشرق باهتمام ــ كيف ان رجالا مثل العقاد وطه وحسين بكوا على سقوط باريس في ١٩٤٠ •• وأعرف شخصيا بعض المعجبين بالعقاد وطـه حسين فتر اعجابهم بعد صدور ذلك الموقف عنهما •

على ان موقف موريس طوريز من قضية الجزائر قبل حرب التحرير لم يكن يخلو من نقط ايجابية، فهو يؤكد منذ ١٩٣٩ بأن « التعليم الفلاحي الفني لا ينبغي ان يخدم فقط كبار المعمرين لكن ينبغي ان يكيّف، بحيث يمكن الفلاحين (الجزائريين) من الحصول على الحد الأدنى من المعلومات الفنيه

اللازمة . ان السياسة المائية ينبغي أن تكون مستوحاة من حاجة فئة الفلاحين الأشد فقرا » (٤) .

وفيما يتعلق بتعليم العربية لم يفته ان يلاحظ في نفس الفترة بأن الجمهورية الفرنسية ستكون قد حققت عملا تكون له أصداء بعيدة في اتجاه البلاد الاسلامية : لو انها تسهل وتنظم التعليم العربي لفائدة أطفال هذا البلد (أي الجزائر) ولو انها تنشيء بمدينة الجزائر جامعة عربية لا تكون قاصرة على ابناء الأغنياء ، بل يفيد منها الجميع دون تمييز طبقي .

لكن الذي يعنينا من الموضوع هو تصوير مدى تعقيد العلاقة بين اليسار الفرنسي وبين حركة التحرر الوطني بالجزائر : بفعل المصالح المتضاربة في حالة وجود الاستعمار .

لذلك لم تكن العلاقة بين الطرفين ــ قبل الحرب ــ تخرج عن اطار تضامن اليسار الفرنسي ــ نظريا ــ مع الحركة الوطنية الجزائرية، تضامن نظري لا يكلف مواقف عملية حاسمة تضطر الى اعادة نظر كاملة . فماذا يكلف الدفاع عن متهم أو كتابة مقال في صحيفة .

وقد أتيح للحركات الوطنية الجزائرية ، ان تعرف حدود تضامن اليسار الفرنسي معها من قبل الحرب العالمية الثانية ، من خلال ما عمله ، أو بعبارة أدق ــ من خلال ما لم تستطع عمله حكومة الجبهة الشعبية بفرنسا .

وحتى بعد قيام حرب التحرير لم يستطع هذا اليسار في مجموعه ان يسلم بامكانية الاستقلال التام للجزائر . والنصوص الوحيدة التي نجدها صريحة في دعوة فرنسا الى التخلي عن مستعمراتها وعدم الخضوع الى

مساومة المعمرين : نجدها قد صدرت ابان الثورة الفرنسية أي قبل استعمار الجزائر (*) .

ذلك ان قيام ثورة نوفمبر ١٩٥٤ وضع العلاقة بين الحركة الوطنية الجزائرية وبين اليسار في اطار جديد كل الجدة : فاما ان يتواصل ذلك التضامن الى مداه ، واما أن يتوقف وتتعرى حقيقة ذلك اليسار .

والواقع ان الصدام الذي حدث بين حركة التحرير الوطني وبين اليسار الفرنسي بعد اندلاع الثورة المسلحة كان يندرج في منطق الأشياء، أي انه كان حتميا ، لماذا ؟

١ ـ الثورة الجزائرية كانت نتيجة لتطور تاريخي تواصل منذ استقرار الاحتلال الفرنسي بالجزائر الى ١٩٥٤ . ولم تحدث طفرة . وهذا التطور كان يستمد أصوله من منبعين : منبع الماضي والتراث الذي يذكر بالاستقلال السابق للجزائر ، وبانتمائه الى قيم حضارية سادت العالم في وقت من الأوقات .

---

* يقول روبسبيير ردا على الذين كانوا يلوحون بتهديد المعمرين « ... لتذهب المستعمرات اذا كان بقاؤها يتسبب لكم في ضياع شرفكم ومجدكم وحريتكم . لتذهب المستعمرات اذا كان المعمرون يريدون ، أن يحملونا بالتهديد على اتخاذ المواقف التي تتلاءم أكثر مع مصالحهم . اني اصرح باسم المجلس ، وباسم أعضاء هذا المجلس الذين لا يريدون اسقاط الدستور ، باسم الامة بأجمعها التي تريد ان تكون حرة ، باننا لن نضحي لفائدة المعمرين لا بالامة، ولا بالمستعمرات ، ولا بالانسانية جمعاء » .

ومنبع العصر . الذي كان يمد الحركة الوطنية الجزائرية ، بما يدعمها نظريا مثل مباديء المساواة والحرية وحق الشعوب في تقرير المصير . واذا كان اليسار الفرنسي يتعرف بسهولة على مظاهر هذا المنبع في حركة التحرر الوطني . وبالتالي يميل الى مساندتها . فانه يجد بعض التحرج عندما يلاحظ مظاهر المنبع الاول ،ويعتبرها مظاهر رجعية .متخلفة ووطنية ضيقة . لا تساير روح العصر .

٢ ــ اتخذت حركة التحرر الوطني بالجزائر شكلا خاصا نتيجة للظروف التي تميز بها الاستعمار الفرنسي . والتي تختلف عن جميع المستعمرات الفرنسية . فقد كان تصلب الاستعمار الفرنسي وتطرفه الى أقصى حد : من شأنه أن يدفع حركة التحرر الوطني الى راديكالية قصوى لا مجال معها لأنصاف الحلول .

فالحلول النصفية تكون ممكنة عندما يكون اعتراف وتسليم من الاستعمار الفرنسي بوجود شخصية وطنية ؛ او عندما تكون هناك مظاهر سلطة بايدي السكان المحليين كما كان الشأن في تونس والمغرب مثلا .

اما في الجزائر فقد كانت النظرية الفرنسية تنكر وجود الشخصية الوطنية . ولم تكن هناك اي مظاهر سلطة بأيدي ممثلي السكان المحليين ولم يكن هناك استعداد من الطرف الفرنسي للتنازل عن أدنى ذرة من السلطة لفائدة الوطنيين .

لذلك لا يبقى امام حركةالتحرر الوطني ألا أستخلاص النتيجة الوحيدة التي تبقى وهي المطالبة بالاستقلال التام ، الشامل .

وللدفاع عن هذا الاتجاه تضطر حركة التحرير الوطني الى الاستناد الى وجود دولة الجزائر الشرعي السابق على الاحتلال الفرنسي . والقول

بشرعية الدولة الجزائرية وبأنها انهزمت فقط في ١٨٣٠ ، يؤدي الى الغاء الشرعية الفرنسية كلية • وهذا ما لا يستطيع اليسار الفرنسي ان يسلم به • خصوصا وان بعض تياراته التي تسلم بوجود الشخصية الجزائرية تعتبر الوجود الفرنسي مسهما في تكوين هذه الشخصية •

٣ ـ على ان الشخصية الجزائرية التي يسلم بها اليسار الفرنسي تختلف عن الشخصية الجزائرية في مفهوم الحركة الوطنية الجزائرية •

فاليسار الفرنسي اذ يعتبر هذه الشخصية بصدد التكوين ، يرمي الى دمج أروبيي الجزائر في هذه الشخصية ، واعتبارهم جزءا لا يتجزأ منها • أي أنه لم يكن يعتبرهم « اجانب » عن الجزائر ، وممثلين للسلطة الاستعمارية •

٤ ـ اضطرار الحركة الوطنية الى تلك الراديكالية ، بفعل ظروف الاستعمار الفرنسي نفسه من شأنه ان يطرح قضية اسلوب التحرر : واسلوب التحرر في هذه الحالة هو العنف ، ولا شيء سوى العنف •

والدعوة الى العنف في الحركة الوطنية بالجزائر لم تظهر فقط في ١٩٥٤ ، بل لقد ظهرت من قبل ذلك بكثير • وهي تستند الى تقاليد عريقة في الكفاح المسلح ، وتتجدد باستمرار ذكريات الامير عبد القادر والمقراني وغيرهما •

ولم يكن من محض الصدفة ظهور شعار « الحقيبة او التابوت » الذي كان يستعمله الاروبيون لتصوير دعاة الاستقلال في صورة مرعبة • فقدكان أروبيو الجزائر أكثر احساسا بمدى خطورة تطور الحركة الوطنية على مصالحهم ، وبالتالي على وجودهم • ومن هنا كانوا ضد أي انفتاح وأي تفاهم مع هذه الحركة ، وضد اية اصلاحات قد يستغلها الجزائريون في تحقيق مكاسب جديدة •

وشعار « الحقيبة او التابوت » بقطع النظر عن مصدره الاول ، وبقطع النظر عن استعمالاته ، كان يعكس هذه الحقيقة الموضوعية وهي استحالة تحرر الجزائر الا بالعنف من جهة ، وان استقلال الجزائر لا يمكن الا ان يكون تاما من جهة اخرى ، وفي هذه الحالة لا مكان لاروبيين اجانب فيها ، وانه ما عليهم الا ان يرحلوا عنها أو يقتلوا فيها .

كان هذا الأسلوب ، العنيف ، يخيف اليسار الفرنسي الذي كان يعتقد ان بالامكان ايجاد حل ما عن طريق منح الجزائر نظام « الدولة المشاركة » الذي كانت تطالب به تونس والمغرب ، والذي كان يتردد بكثرة قبل قيام ثورة نوفمبر .

على أنه مهما كانت الحلول ــ السلمية ــ التي يتصورها اليسار فقد كانت كلها تجمع على اعتبار اروبيي الجزائر جزءا لا يتجزأ من الجزائر ، مهما كان المصير الذي تؤول اليه .

٥ ــ هذا الاتجاه الراديكالي الذي طبع الحركة الوطنية بالجزائر حتى من قبل اندلاع الثورة المسلحة ، كان يستلزم اعادة النظر في كل الماضي الاستعماري في اتجاه الادانة . وهذا ما لم يكن يرضي اليسار .

وقد تبلور الخلاف حول هذه النقطة في حرب التحرير ، عندما كان اليسار ينص على « الجوانب الايجابية » في الاستعمار ، دفاعا ضد هذه الادانة المطلقة للاستعمار التي كانت واضحة في كتابات الثورة الجزائرية . وكانت الثورة الجزائرية ترد على حجة «ايجابية الاستعمار » بالتذكير بما استلزمته تلك « الايجابية » من تفقير للشعب ، ونهب لثرواته .. بل ان الثورة كانت ترفض التسليم بتلك الايجابية لان ذلك يعني تبرير الاستعمار وهو ما لا يمكن تصوره في حركة ثورية تريد أيجاد تغيير جذري للأوضاع السابقة .

وبعبارة اخرى ان اليسار الفرنسي ، لم يكن يستطيع ان ينسى وصف « الفرنسي » عندما يتعرض لنقد الاستعمار « الفرنسي » • لان الادانة المطلقة لذلك الاستعمار تعني ايضا ادانة اليسار •

٦ ــ اليسار الفرنسي. مثل مجموع اليسار الغربي، كان متأثرا بالمثالية الهيغلية . التي كانت تعتبر ان مجرى التاريخ متوقف على التغييرات التي تحدث في الفكر ، وهي تغييرات يمكن ملاحظتها في الذات التي اختزنت جوهر التاريخ • وبناء على ذلك تكون المرحلة التي تسبق روحانية الانسانية بأجمعها خاضعة لرقابة الفليسوف ، بوصفه الذات المتميزة وممثل الفكر ، وكان مفهوم الفيلسوف : عند هيغل ــ في هذاالنطاق لا يعني حب الحكمة وحب العلم ، ولكن يعني الرجل الذي يمتلك ناصية المعرفة الحقة (٦) •

واذا نحن حاولنا تقييم اليسار الفرنسي : على ضوء المواقف العملية وليس على ضوء ما يقال : نجد أنه يؤمن بأن كل شيء جدي يحدث في التاريخ يتم في ميدان الفكر الذي يعتبر مثقفو اليسار هم ممثليه الامتيازيين • « اما بقية الأنسانية فأنها لا تفهم مغزى الأحداث ولا تعرف حتى مصالحها الخاصة المدرجة في هذه الاحداث : اذا هي لم تعتمد على التفسير وخط السلوك الذي تقدمه الانتليجنزيا المثالية (٧) »•

أن شعور اليسار الغربي بعثوره على سر الاسرار وبامتلاكه للحقيقة : نجده واضحا في مواقف وسلوك اليسار الفرنسي ، وهذا ما يفسر تلك الوصاية التي كان ــ وما يزال بعض ممثليه حتى الان ــ يحاولون فرضها على الثورة الجزائرية •

ومن بين العوامل التي ساعدت على دفع اليسار الفرنسي في اتجاه « الوصاية الابوية » على الثورة ، هو اللغة التي كان يستعملها

بعض الوطنيين الجزائريين في تبرير الثورة ، مثل الاستشهاد بالثـــورة الفرنسية والانتماء الى قيمتها ومثل التذكير بالمقاومة الفرنسية ضد النازيين.

كان اليسار الفرنسي يجد في ذلك نوعا من الاعتزاز ، لانه يشعر بأن فرنسا هنا هي ملهم حركة التحرر الوطني وهي مرجعها الاساسي .

وعلى الرغم من أن التيار الماركسي في هذا اليسار كان ينتمي الـى فلسفة مادية ، وليست مثالية ، فأنه لم يكن في مواقفه العملية ، يختلـف عن اليسار المثالي . فقد كان يعتبر انه هو الذي يمتلك الحقيقة من جهة وكان يؤمن بحلول برهنت الوقائع على استحالتها وكشفت عن مثاليتهـا مـن جهة أخـرى .

٧ ـ على أن انعدام الثقة وجو الريبة بين اليسار الفرنسي والحركة الوطنية الجزائرية لا تفسره هذه العوامل فقط ، فهو يستند الى عدة وقائع تميزت بها العلاقة بين الطرفين حتى من قبل نوفمبر ١٩٥٤ .

ويكفي في هذا المجال التذكير بحادثتين : الأولى هي اقدام حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا بتاريخ ٢٥ جانفي ١٩٣٧ على حل حركة « اتحاد مسلمي شمال افريقيا » التي خلفت حركة نجم شمال افريقيا بعد ان حلت هـذه . وقد اتيح للحركة الوطنية الجزائرية ، بهذه المناسبة ، ان تكشف جانبـا من حقيقة هذا اليسار : فأذا كان بعض ممثلي اليسار قد ادانوا هذا الحل وهم أقلية ـ فأن بعضهم الآخر ومن بينهم اليسار الماركسي قد أيد هـذا الحل ، بل أن بعض التيارات الماركسية ذهبت الى حـد وصف الوطنيين الجزائريين بأنهم « هتليريون » .

والجدير بالتسجيل هنا أن الحركة الوطنية الجزائرية التي حلت في ١٩٣٧ على يد حكومة الجبهة الشعبية ، هي نفس الحركة التي كانـــت

دفعت العمال الجزائريين في فرنسا الى مساندة اليسار في باريس والاسهام في الكفاح ضد التجمعات الفاشية الفرنسية عام ١٩٣٤ •

اما الواقعة الثانية فتتصل بحوادث ماي ١٩٤٥ فقد كان وزير الداخلية الفرنسي آنذاك من أعضاء الحزب الاشتراكي الفرنسي ، وكان وزير الطيران عضوا في الحزب الشيوعي الفرنسي •

وباختصار أن الحكومة الفرنسية التي انبثقت عن المقاومة الفرنسية ـ أي أن طابعها العام كان يساريا ـ هي التي تولت مسؤولية توجيه القمع الذي ذهب ضحيته خمس واربعون الف جزائري في حوادث سطيف وخراطة وقالمة •

واذا كان من المسلم به القول بأن حوادث ماي ١٩٤٥ هي التي كانت خميرة نوفمبر ١٩٥٤ فمعنى ذلك ان آثار هذه الريبة من اليسار الفرنسي كانت موجودة ولا شك عند كوادر ومناضلي نوفمبر ١٩٥٤ •

تلك بعض العوامل الاساسية التي تجعل الصدام بين الثورة الجزائرية وبين اليسار الفرنسي حتميا •

وبالفعل فان تطور القمع الاستعماري بعد نوفمبر ١٩٥٤ وتحكيم قانون الغاب واعلان مبدأ المسؤولية الجماعية (أي اعتبار مجموع الدشرة أو القرية مسؤولة عن عمل الفدائي أو المسبل أو جندي جيش التحرير ، وهو مبدأ اعلن عنه وطبق بالفعل منذ ١٩٥٥) والتقتيلات الجماعية ودك المداشر بالقنابل واستعمال النابالم وتعبئة كل أوروبيي الجزائر ضد الثورة كل ذلك جعل حدود المعركة بين الجزائر وبين الاستعمار الفرنسي واضحة لا مجال فيها للبس أو غموض •

وهذا بالضبط ما كان يطرح على اليسار الفرنسي أسئلة ، رفض الاجابة عنها بوضوح وحسم •

وزاد تردد اليسار في اتخاذ موقف حاسم ، ان اليمين الفرنسي كان قد نجح تدريجيا في تطوير حرب الجزائر وتصعيد القمع بها على أيدي مسؤولين ينتمون الى اليسار : فقد تولى رئاسة الحكومة الفرنسية خلال السنوات الثلاث الأولى للثورة ، رجال مشهورون بانتمائهم لليسار ، من منداس فرانس الى ادغار فور الى غي موللي، كما نجح اليمين الفرنسي في تطوير صورة حرب الجزائر من حرب استعمارية أو حرب اعادة استعمار ، الى « حرب وطنية فرنسية » الى حرب « في خدمة الحضارة والتقدم » • ومن هنا أصبح اليسار الفرنسي يخشى من التضامن الصريح مع الثورة ، ان يتهم بالخيانة •

يضاف الى ذلك ان ردود الفعل التي لجأت اليها الثورة الجزائرية في مواجهة عمليات الابادة والتقتيل الجماعي وحرق المداشر واخلاء المناطق من السكان وصولا الى عزل جيش التحرير عن الشعب ـ ردود الفعل كانت ردود فعل جزائرية ضبطت نتيجة ممارسة فعلية للكفاح ولم تكن ترجع فيها الثورة الجزائرية الى اليسار الفرنسي تطلب نصائحه وتوجيهاته ، مما جعل اليسار الفرنسي يشعر بانفلات زمام الوصاية ، في حين كان يعتقد ان بامكانه الاستمرار في فرض تلك الوصاية ، كما كان قد فعل مع حركات وطنية في بلدان أخرى •

ثانيا : لم يختلف موقف اليسار الفرنسي من الدولة الجزائرية بعد نوفمبر ١٩٥٤ ، عما كان عليه قبيل الحرب العالمية الثانية •

فقد كان يتلخص في :

ـ أ ـ اعتبار ان الأمة الجزائرية بصدد التكوين ، وانها مدينة في تطورها للاستعمار الفرنسي •

هذه النظرية نجدهـا منتشرة انتشارا واسعا في صفـوف اليسار الفرنسي • بل هناك من لا يتردد في التأكيـد على ان فكرة « الأمـة في الجزائر نشأت من القمع » [٨] •

ـ ب ـ اعتبـار أوروبيي الجزائر جـزءا لا يتجـزأ من الدولـة الجزائرية أو من الشعب الجزائري •

هذه الفكرة كانت موجودة في كتابات اليسار ـ بما فيه الماركسي ـ اللينيني ـ من قبل ١٩٤٠ واستمرت حتى بعد قيام الثورة [٩] •

بل ان هناك من اليساريين من كان يـرى في نهايـة ١٩٥٧ ضرورة تحديد حق الجزائر في تقرير المصير بشروط تتمثل في « ضرورة الاعتراف داخل هذه الأمة بحق الأقلية للعناصر التي هـي من أصـل أوروبي أو للعناصر غير المسلمة » [١٠] •

وبقطع النظر عن هذا التناقض المتمثل في اعتماد بعض ممثلي اليسار على الدين لايجاد تمايز داخل الشعب الواحد، نسجل بأن اليسار الفرنسي لم يستخلص النتيجة المعقولة ، بشأن هذه النقطة حتى بعد قيـام حـرب التحرير الوطني ، ووجود عناصر كافية لتقييم الوضعية تقييما موضوعيا •

ثالثا : ظهور ما يمكن تسميته بـ « التضامن المشروط » ، الـذي كان نتيجة طبيعة لما لاحظناه سابقا وهو وجـود شعور التفوق ورغبـة الوصاية عند اليسار الفرنسي •

كان هذا التضامن المشروط يتمثل في قول اليسار : « نحن نؤيدكم ولكن» • وكانت« لكن» هذه مفتاحا للعديد من تحفظات اليسار الفرنسي الذي كان لا يتردد في ادانة العمليات الفدائية التي تفجر فيها قنابل تؤدي بحياة مدنيين فرنسيين • بل كان يطلب من جبهة التحرير الوطني ان تدين هذه العملية أو تلك التي ذهب ضحيتها مدنيون أوروبيون •

لقد ساعدت اذن مجموعة العوامل السابقة على دفع العلاقة بين الثورة الجزائرية وبين اليسار الى الخروج من طابع الغموض والمواقف المائعة الى طابع الحسم والوضوح واتخاذ المسؤوليات .

اذا نحن أردنا تحليل مواقف اليسار الفرنسي في هذه المرحلة نجدها لا تختلف في جوهرها عن مواقف ما قبل الثورة . فهي تتميز خاصة بما يلي :

أولا : تقديم متطلبات التكتيك اليساري الداخلي ، على كل اعتبار آخر ، ولو كان الأمر يتعلق بمصير شعب . وقد ظهر ذلك جليا في سلسلة الاجراءات التي اتخذتها حكومة غي موللي التي كانت هي حكومة « الجبهة الجمهورية » التي نجحت في انتخابات جانفي ١٩٥٦ . وهي اجراءات تذكرنا ـ مع اختلاف الظروف طبعا ـ بالاجراءات التي كانت اتخذتها حكومة « الجبهة الشعبية » في ١٩٣٧ ضد الحركة الوطنية الجزائرية .

وقد كانت قمة هذا التصرف هي مصادقة ممثلي اليسار ـ بما فيهم اليسار الشيوعي ـ على منح السلطات الخاصة الى الوزير المقيم بالجزائر لاكوست ، تمكينا له من تسليط جميع أنواع القمع الممكنة ضد شعب يكافح من أجل حريته ..

كما كانت قمة مواقف اليسار ضد الحركة الوطنية الجزائرية ، قبل الحرب العالمية الثانية هي اتهامها بأنها « هتلرية » .

بل لقد شاهدنا حركة يسارية فرنسية ، ماركسية ـ لينينية ، تصدر تعليماتها الى أعضائها بمنعهم من المشاركة في شبكات المساندة المنظمة لجبهة التحرير الوطني ـ ومن تقديم أي عون عملي للمناضلين الجزائريين .

واذا كان اليسار الفرنسي حرا في اتخاذ المواقف التكتيكية التي

يريد ، فليعترف على الأقل بهذا الحق لحركة التحرر الوطني ، ولا يتهمها بأنها « ضيقة الأفق » لانها لم تقدم اهتماماته على اهتماماتها •

وطبعا لم يكن باستطاعة جبهة التحرير ان تستجيب لمطالب اليسار الفرنسي دون أن تحكم على نفسها • لان قواعد الثورة لم تكن لتهضم مثل هذه الادانة لاعمال هي جزء من كل وتندرج في اطار كفاح شامل •

على ان مطالب اليسار الفرنسي في هذا الميدان كانت تشتمل على مغالطة خطيرة : فاليسار الفرنسي كان يقول عمليا لجبهة التحرير :

نحن ندين أعمال الجيش الفرنسي الاجرامية في الجزائر ، ونطلب منكم بالمقابل ان تدينوا الأسلوب الذي يؤدي الى قتل المدنيين الفرنسيين الابرياء •

في حين ان الحرب الناشبة في الجزائر آنذاك لم تكن حربا بين اليسار الفرنسي وبين جبهة التحرير ، حتى يكون تنازل هذا متطلبا لتنازل ذاك • كانت الحرب قائمة بين الشعب الجزائري المنظم في جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني من جهة وبين الجهاز الاستعماري كله ومن ورائه النظام الفرنسي من جهة أخرى •

فادانة اليسار الفرنسي لاعمال الجيش الفرنسي في الجزائر لا تلزم الجهاز الاستعماري ولا النظام الفرنسي ولا تكون لها انعكاسات حاسمة على موقف وسلوك الجيش الفرنسي المحارب في الجزائر • لان العناصر المسؤولة في قيادات الجيش الفرنسي المحارب في الجزائر هي عناصر يمينية موضوعيا وتعتبر اليسار الفرنسي عدوا داخليا لها ، أي عدوا لها في فرنسا نفسها وليس في الجزائر فقط •

في حين ان ادانة بعض أعمال الفدائيين من طرف جبهة التحرير

الوطني من شأنه ان يؤدي الى تفجير تناقضات خطيرة داخل التنظيم الثوري تكون لها انعكاسات سلبية على مجرى الثورة نفسها .

أي اننا اذا نظرنا الى المسألة من زاوية أخرى نجد ان موقف اليسار الفرنسي في ادانته للقمع العسكري الاستعماري، لا يكلفه من الناحية العملية شيئا ، في حين ان مطالبته لجبهة التحرير بادانة بعض الأعمال الفدائية تكلف ـ لو استجيب لها ـ ثمنا غاليا تدفعه الثورة ، والواقع ان ما كان يطلبه اليسار الفرنسي هو تأكيد وصايته على الثورة الجزائرية ، وتبرير فراره من اتخاذ مواقف عملية تنسجم مع مواقفه النظرية .

بل ان تتبع كتابات اليسار الفرنسي خلال حرب التحرير، يكشف عن مفارقات غريبة ، مثل تزويد الحكم الفرنسي بحجج تؤدي عمليا الى تمديد عمر الحرب .

مثلا : كثيرون هم الملاحظون الذين يعرفون ان الموقف الفرنسي في العهد الديغولي كان يتلخص في مطالبة الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بوقف القتال قبل الشروع في المفاوضات وكانت العبارة التي أطلقها الجنرال ديغول تعبيرا عن هذا الموقف هي « اتركوا السكين في المدخل » .

هذه العبارة كانت ظهرت قبل استيلاء الجنرال ديغول على الحكم في بعض الأوساط اليسارية دفاعا عن مشروع غي موللي الذي كان يتلخص في : « وقف القتال .. الانتخابات ثم المفاوضات » . وقد قال بعضهم في نوفمبر ١٩٥٧ دفاعا عن فكرة وقف القتال قبل التفاوض : « بقدر ما أنا مؤيد لاستقلال الجزائر ، بقدر ما أنا مضطر الى الاعتراف بأن بلدي لن يقبل الاستقلال تحت تهديد السكين [١١] » .

ان هذه العبارة تكشف عن وجود انسجام بين موقف اليسار أو

بعض تياراته على الأقل وبين موقف الحكم الفرنسي ، سواء في عهد الجمهورية الرابعة ، أو في عهد الجمهورية الخامسة. وهي في الوقت نفسه تكشف عن ذلك التشبث العجيب بروح الوصاية : فانا مستعد للاعتراف بالاستقلال لكن ليس تحت التهديد .

وينسى اليسار الفرنسي انه بذلك يطلب من الثورة طلبا مستحيلا . لان الثورة تعرف انه لولا التهديد (اي الحرب) لما ظهرت عبارة الاستقلال .

اذن فقد كان الصدام بين اليسار الفرنسي والثورة الجزائرية أمرا محتوما لا مندوحة عنه . ان تتبع الاطوار التي مرت بها العلاقة بين اليسار الفرنسي والحركة الوطنية الجزائرية ، الى ما بعد قيام جبهة التحرير الوطني يجعلنا نلمس حقيقة أساسية تتلخص في ان الاصطدام الذي حدث بين اليسار الفرنسي وبين جبهة التحرير الوطني لم يكن من فعل فرد أو مجموعة أفراد ، ولكنه كان نتيجة طبيعية فرضها منطق الاشياء .. ومنطق الاشياء هنا متصل بسلسلة طويلة من الاحداث والوقائع طبعت تاريخ الجزائر المعاصر ، ووجهت علاقة حركاتها الوطنية مع اليسار الفرنسي وجهة معينة .

ونظرا الى أن قمة التأزم ، كما قلنا قبلا في العلاقة بين اليسار والحركة الوطنية ـ قبل اندلاع الثورة ـ تمثلت في حوادث الثامن من ماي التي تحملت مسؤوليتها حكومة كان اليسار ممثلا فيها تمثيلا واسعا ... بل كان اليسار يملك فيها وزارتين تحملتا مسؤولية توجيه عمليات القمع ، وهما وزارة الداخلية ووزارة الطيران ، فقد ظهرت آثار ذلك التأزم خلال حرب التحرير .

واذا لاحظنا زيادة على ذلك ان تأزم العلاقة بين فانون واليسار يرجع الى عام ١٩٥٧ فقط ، فان المنطق يقضي بان الثورة الجزائرية هي

التي أثرت في فانون ، وهي التي صهرت أفكاره فيما يتصل باليسار الفرنسي ، وليس العكس .

لكن الذين قرأوا كتابات فانون ، وخاصة ما نشر منها بعد موته أوعزوا الى فرانز فانون هذا التأثير بسبب مقالاته الثلاث التي نشرت في « المجاهد » خلال شهر ديسمبر ١٩٥٧ . لماذا ؟ لانهم كانوا يجهلون طبيعة العلاقة بين الثورة الجزائرية واليسار الفرنسي ، التي كانت متأثرة بعدة عوامل أبرزها : موقف اليسار من الكفاح المسلح ، ومواقفه السابقة من الحركة الوطنية الجزائرية ، ونظرياته في الكيان الجزائري والدولة الجزائرية .

والواقع ان هناك ملاحظة لا بد من تسجيلها في هذا الصدد ، وهي ضرورة التفرقة بين ما هو لفانون حقا ، وما هو مكتسب من الثورة الجزائرية .

ففي هذه المقالات الثلاث ، يجب أن نفرق بين اللهجة الحادة التي هي فعلا لفانون ، وبين الجوهر الذي يعبر عن موقف الثورة الجزائرية . ولا شك ان العبرة هنا بالمحتوى وليست باللهجة . والمحتوى لم يكن موضوع خلاف بين عناصر جبهة التحرير الوطني واذا كانت قد وجهت آنذاك بعض المآخذ الى هيئة تحرير « المجاهد » من طرف بعض العناصر القيادية ، بشأن هذا الموضوع ، فقد كان ذلك راجعا الى ملابسات خاصة لا تتصل بالمحتوى .

على ان تأثير الثورة الجزائرية في فانون ودورها في تشكيل نظرته الى اليسار الفرنسي لا يكفي في تفسير موقف فانون من اليسار بعد التحاقه بالثورة ، فليس فانون واحدا من أولئك الذين يغيرون أفكارهم بسهولة تحت ضغط الظروف . بل كانت له آراؤه التي يعتز بها .

وطبيعة العلاقة بينه وبين اليسار ، قبل الثورة ، يوجد بها أكثر من

عنصر يحمل على الانسجام وعلى التقارب والتعاطف . وقد ألمنا ببعض تلك العوامل ، سواء منها ما يتصل بالأصل المشترك للتفكير الفانوني وتفكير اليسار الفرنسي ، اذ ينبع كلاهما عن المثالية الهيغلية أو فيما يتصل بالنظرة الى الانسان بوصفه فردا داخل طبقة ، وليس بوصفه منتميا الى شعب .

اذاً فلا بد ان نبحث عن مزيد من الضوء لتفسير هذا التحول الذي طرأ على فانون وعلى نظرته لليسار ، لان علاقة لها مثل هذه الوشائج لا يمكن ان تتغير بسهولة .

لاستجلاء الحقيقة حول هذه النقطة بالذات ، لا يكفي الاعتماد على كتابات فانون ، بل يجب الرجوع أيضا الى كتابات أو ذكريات بعض من عرفوه في هذه الحقبة .

فقد كتب فرانسيس جانسون تعقيبا على كتاب فانون « بشرة سوداء أقنعة بيضاء » نشر في خاتمة الكتاب عندما أعيد طبعه في ١٩٦٥ ، تحدث فيه عن بعض لقاءاته مع فانون . والذي يهمنا هنا هو حديثه عن لقاء له مع فانون ومقارنته بين نفسية فانون في اللقاء الأول والثاني . (اما اللقاء الثالث فقد نعرض لتحليله عندما تسنح الفرصة للحديث عن الموضوع الذي يتصل به) . كان اللقاء الأول في ١٩٥٢ ، وتم اللقاء الثاني في باريس ، خلال الأشهر الاولى من عام ١٩٥٧ ، عندما كان فانون في طريقه الى تونس ، وكان جانسون ينتمي الى تنظيم يتولى تسهيل مرور المناضلين الجزائريين من فرنسا أو من الجزائر عبر باريس الى الخارج للاتصال بقيادة جبهة التحرير الوطني .

يقول جانسون عن هذا اللقاء الثاني ما ترجمته :

« أراني هذا اللقاء الثاني فانون تحت ضوء جديد ، فقد وجدته

أكثر جاذبية وأكثر بعدا في آن واحد . كان فانون في نفس الوقت الذي يحدثني فيه بجدية قصوى عن الارهاب الذي كان يعيش فيه يوميا بجحيم مستشفى البليدة ، حيث كانت أيامه ولياليه موزعة بين المجانين المزيفين والمجانين الحقيقيين ، بين الذين شوه عقلهم الاستعمار ، وبين الذين يتظاهرون بالجنون من مناضلي الثورة الذين لجأوا الى هناك مؤقتا يخفون شخصيتهم الحقيقية . كان يظهر احتقارا كبيرا لكل ما يجري بفرنسا ولكل ما كنا نحاوله وللتنظيم نفسه الذي يسهل له مهمة المرور الى تونس . لقد كان فانون ذاهبا الى تونس ولم نكن نحن موجودين في نظره (١١) » .

ان فرانسيس جانسون يحدثنا هنا عن انه وجد فانون أكثر جاذبية ... وأكثر بعداً من فانون الذي لقيه عام ١٩٥٢ . أما كونه أكثر جاذبية فهو أمر مفهوم : فلقاؤهما عام ١٩٥٢ كان لأول مرة ، بينما لقاء ١٩٥٧ كان قد تم بعد تعارف فكري ... يضاف الى ذلك انهما كانا آنئذ يخدمان قضية واحدة .

لكن اشتراكهما في خدمة قضية واحدة من شأنه أن يجعلهما أكثر قربا ... في حين ان جانسون يسجل بانه وجد فانونا أكثر بعداً ... فما هو تفسير ذلك يا ترى ؟

تفسير ذلك في رأيي يرجع الى ان منظور الرجلين بدأ يختلف ... ففرانسيس جانسون كان يشتغل في تنظيم « فرنسي » يساعد جبهة التحرير . أما فانون فقد كان يتهيأ لقطع كل صلة له بماضيه ... كان يتهيأ لان يصبح جزائريا ... لان يندمج كليا في الثورة الجزائرية . لانه وجد في هذه الثورة ضالته : انها هيأت له فرصة الانتماء الى وطن أفريقي يحل مشكلته ويشبع نهمه للنضال وحماسه للعمل ، ومن ثم أصبح يشعر بانه ارتقى الى مرحلة أسمى من مراحل العمل النضالي . ومن هنا ، كان

لا شك ، تعاليه على اليسار ،الذي سجله جانسون عندما لاحظ ، متحدثا عن لقاء ١٩٥٧ : « لقد وجدت ــ بعد خمس سنوات ــ نفس الشخص صعوبة اتصال ، لكن بكيفية مختلفة تماما، لا شك انه صار أقل حساسية، لكن من المؤكد انه أصبح أكثر تعاليا [١٢] » .

فكونه أصبح أقل حساسية ، وأكثر تعاليا لهما تفسير واحد هو هذا الانتماء الى شعب يناضل ، شعب ، مستقبله أمامه ، وليس وراءه .

كان فانون في ١٩٥٢ أكثر حساسية ، لان لونه كان يحول دون اندماجه الكلي في الغرب ، وكان عدم انتمائه الى وطن يعتز به ، جعله يرى في كل تعليق ــ ولو بالشكر لعمله ــ تعريضا بلونه .

أما في عام ١٩٥٧ فقد زالت تلك الحساسية بالاندماج في الشعب الجزائري ... وفي نفس الوقت أصبح « أكثر تعاليا » لانه كان يحس بانتمائه الى شعب يناضل ... أما اليسار الفرنسي فكان يتحدث ... وكان في أحسن الحالات يسهل مهمة المرور .. للاشخاص أو الاموال.. أما هو فينتمي الى حركة تخوض حربا ... حركة تعرض المنخرط فيها لاخطار الموت والدمار ... لكنها في الآن نفسه تمنحه فرصة ليصنع الحياة ، وصياغة المستقبل ... فما أتفه عمل اليسار الفرنسي بالقياس الى ما يعمله هو ، الى ما يمكن أن يعمله من الآن فصاعدا داخل هذه الثورة التي حركت شعبا أعزل ، وهزت دولة من أقوى الدول وأعتاها .

وفجأة أصبح فانون لا يفهم تردد اليسار الفرنسي وميوعته ... لانه كان يقيس اليسار بمقياسه ... كان من شدة انسجامه السابق مع اليسار الفرنسي يتصور انه ما دام هو ، فانون ، قد اتخذ هذا الموقف واندمج بالثورة الجزائرية ، فان في استطاعة الآخرين ان يفعلوا نفس الشيء .

وفعلا فإن سيمون دي بوفوار قد سجلت في مذكراتها ان فانون كان يأخذ على سارتر انه لم يعمل على « تطهير » نفسه من الفرنسة ، وكان يقول له : « لنا عليكم حقوق . فكيف تستطيعون أن تستمروا في حياة عادية ، وتكتبون ؟ » .

وتقول دي بوفوار :

« كان فانون يطلب أحيانا من سارتر أن يقوم بعمل فعال (لفائدة الجزائر) وكان يطلب منه أحيانا أخرى ان يختار الاستشهاد . كان يعيش في عالم مغاير لعالمنا . كان يتصور ان فانون سيقلب الرأي العام العالمي رأسا على عقب ، لو انه أعلن عن توقفه عن الكتابة الى أن تنتهي حرب الجزائر ، أو على الأقل فليدخل سارتر الى السجن حتى يتسبب في فضيحة وطنية . ولم ننجح في حمله على التراجع عن مثل هذه الآراء [١٣] » .

لكن ما لم يدركه فانون آنذاك هو ان رجال اليسار الفرنسي لا يستطيعون ان يتخذوا كلهم نفس الموقف الذي اتخذه فانون ، لانهم فرنسيون .

تلك هي في نظري طبيعة التحول الذي حدث في نفسية فانون والذي يساعد على فهم سر تغيير موقفه من اليسار ، الى جانب تأثير الثورة الجزائرية فيه .

ذلك ان فانون قطع كل صلة له بماضيه ، سواء بوصفه غربيا ، كما كان يعتقد ، أو بوصفه يساريا كما كان يتصور ، مما جعله مهيأ لاستقبال التأثيرات الجزائرية .

وهذا ما حدث بالفعل .

فلننظر مثلا الى موقف فانون من الكيان الجزائري ، عام ١٩٥٨ .

ولنقارن بينه وبين مواقفه السابقة ـ قبل احتكاكه بالثورة ـ والتي كان ينكر فيها كل ماض وكل دور للماضي ، والتي كان يرفض فيها أن يحاسب الاستعمار على ما ارتكبه في الماضي ، ولنقارن أيضا بين موقفه في ١٩٥٨ وبين موقف اليسار الفرنسي ، لنلاحظ مدى تبني فانون لنظرية الثورة الجزائرية وتقبله لها كلية .

فقد كتب مقالا بعنوان : « الاستقلال وزوال الاستعمار » ، نشر في « المجاهد » بتاريخ غرة أفريل ١٩٥٨ ينص على التجديد الذي أحدثته الثورة الجزائرية في مجرى حركات التحرر الوطني ، ويتعرض فيه لدحض حجة ايجابية الاستعمار ، وقد جاء في هذا المقال ما يلي :

« ان الثورة الجزائرية قد أدخلت عنصرا جديدا في دوران معارك التحرير الوطني فضح الاستعمار فضيحة كبرى . فالاستعمار بصفة عامة استطاع ان يحافظ على نفسه كقيمة وكحقيقة في الوقت الذي ينكره التاريخ وتنكره الارادة الوطنية ، فليس صحيحا أن فرنسا قد حققت عملا جميلا عندما جعلت من الجزائر ما هي عليه اليوم .

ان ميناء مرسي الكبير ومطار بوفاريك المعد للطائرات النفاثة ، لن يسلينا أبداً عن البؤس الفكري والمعنوي والمادي الكبير لشعبنا .

ان الاستعمار الفرنسي لن يجد عند الشعب الجزائري ما يبرره . فلن ينسينا أي انجاز ضخم تلك العنصرية التي أصبحت شرعية ولن ينسينا الأمية التي أراد الاستعمار أن يشل بها الضمير الوطني .

هذا هو السبب في ان تصريحاتنا لا تتحدث أبداً عن التكيف، ولكنها تنص على استعادة حقنا كاملا . ان الرأي العام الفرنسي ما انفك يأخذ علينا الاحتجاج الدائم بوجود الأمة الجزائرية قبل بيجو . لاننا عندما نلح على هذه الحقيقة الوطنية ، وعندما نجعل من ثورة أول نوفمبر

١٩٥٤ مرحلة من مراحل المقاومة الشعبية التي ابتدأت مع عبد القادر ، نجرد الاستعمار الفرنسي من الشرعية ومن زعمه الاندماج في الحقيقة الجزائرية . فنحن عوض أن ندمج الاستعمار في التاريخ الجزائري ، على أساس انه كان ميلادا لعالم جديد ؛ جعلنا منه حادثا مؤسفا بغيضا ، كانت نتيجته الوحيدة هي انه أجلّ بكيفية لا تقبل اعتذارا ولا تبريرا : التطور المنسجم للمجتمع الجزائري وللأمة الجزائرية . ان كل العبارات الخداعة ؛ مثل « الأمة الجزائرية بصدد التكوين » و « الجزائر الجديدة» و « الحادث الفريد في التاريخ » قد كنسها موقف جبهة التحرير الوطني كنسا ، ولم يبق قائما في وضح النهار سوى كفاحنا البطولي الذي يقوده شعب كامل ضد اضطهاد استمر أجيالا .

ان الشعب الجزائري حدد خياره بين القطيعة مع الماضي الجزائري، وما يترتب عن ذلك من الاستقرار وسط جهاز استعماري مجدد لكنه مستمر ، وبين الوفاء لأمة وقعت مؤقتا في براثن الاضطهاد ، واختار بوضوح ما يلي :

«لا وجود هناك لذاتية جديدة تولدت عن الاستعمار ، ان الشعب الجزائري لم يقبل بان يتحول الى تعاون . ان فرنسيي الجزائر لم يتعايشوا مع الشعب الجزائري ، ولكنهم سيطروا عليه ، لذلك كان لزاما منذ البداية اشعار الشعب الفرنسي بمدى مطالبنا . ان الجبهة لم تتلاعب بالكلمات . لقد قالت ان هدفها هو الاستقلال ، وانه لا مكان لاي تنازل يتعلق بهذا الهدف . لقد قالت الجبهة للفرنسيين يجب التفاوض مع الشعب الجزائري ويجب ان تعاد له بلاده بأكملها » .

ان فانون هنا واضح في انكار كل ما من شأنه تبرير الاستعمار ، كما هو واضح فياعتبار الكيان الجزائري (الامة الجزائرية) موجودا من قبل الاحتلال الفرنسي . وهذه هي نفس نظرية الحركة الوطنية الجزائرية قبل حرب التحرير .

وقد كانت هذه النظرية ، كما لاحظنا سابقا ، محل اخذ ورد مع اليسار الفرنسي ؛ بما فيه الماركسي ــ اللينيني ، الذي كان يفضل نظرية « الامة بصدد التكوين » لانها تسمح بدمج الأقلية الاوروبية في المجتمع الجزائري ، واعتبارها من مكوناته الاساسية .

والحقيقة ان نظرية « الامة بصدد التكوين » التي نادى بها موريس طوريز في عام ١٩٣٩ اذا كانت دون النظرية الوطنية الجزائرية ، فانها كانت تعتبر خطوة الى الامام في ذلك الحين باعتبارها تسلم بوجود كيان جزائري في وجه النظرية الاندماجية الاستعمارية .

ومن الجدير بالتسجيل هنا هو ان الثورة الجزائرية المسلحة ادخلت تعديلا اساسيا على فكرة الكيان الجزائري والامة الجزائرية لصالح النظرية الوطنية . فالتغيير الذي نلمسه عند فانون متصلا بهذا الموضوع كان من فعل هذه الثورة . على ان تأثير الثورة الجزائرية في هذا الموضوع لم يقتصر على فانون فقط ، بل امتد حتى الى الشيوعيين الذين اعترفوا في ١٩٥٨ بخطأ نظرية موريس طوريز الذي كانت تجعل هضم الأقلية الأوروبية واندماجها في المجتمع الجزائري شرطا مسبقا لتكوين الامة الجزائرية . فقد جاء في مقال صدر في مجلة « كراس الشيوعية » بتاريخ اوت ١٩٥٨ ، ما يلي :

« ان الجزائر تجمع اليوم كل مظاهر الامة . فهي مجموعة ، متكونة تاريخيا ، ومستقرة لغويا (العربية) وترابيا (الجزائر في حدودها الحالية بما فيها الاجزاء الجزائرية من الصحراء) واقتصاديا (وهو مظهر عجلت بروزه العلاقات الاقتصادية الرأسمالية التي ادخلها النظام الكولونيالي) وتكوينها نفسيا (وأبرز ملامحه هو الرغبة العميقة في الاستقلال) .

كما انها تشكل مجموعة ثقافية منسجمة (وهي الثقافة العربية ــ الاسلامية المتفتحة على الثقافة الغربية ، والفرنسية بصفة خاصة [١٣]) .

اورد هذا النص جان شسنيو في مقال عن « تكويـن الامم في افريقيا وفي آسيا » . وقد تولى الكاتب المذكور تقديم هذه الفقرة بما يلي :

« في عام ١٩٥٨ قام الحزب الشيوعي الجزائري بنقد ذاتي حول مسألة ذوبان الاقلية البيضاء (اي الاوروبية) كشرط مسبق لتكوين الامة الجزائرية تكوينا كاملا . فقد اعتبر انه قام بتأويل فكرة موريس طوريز في اتجـاه انتهازي ، وان مشكل العلاقات مع الاقلية الاوروبية — لم يكن الا مشكلا ثانويا ، وان الشيء الاساسي هو حصول المجموعة المسلمة على الانسجـام الوطني الكامل (١٤) » .

على ان الثورة الجزائرية لم تكن فقط قد نجحت في ادخـال هذا التعديل الهام على نظرية اليسار الفرنسي ، ولكنها كانت قد نجحت في بلورة بعض المفاهيم وخطط المستقبل .

اي ان الثورة الجزائرية في تحليلها لدور الجزائر في مواجهة الاستعمار والامبريالية ، وفي تعبئتها لطاقات الشعب خلال معركة التحرير ، لم تكـن تقتصر على التذكير بالجانب التاريخي من قضيتها ، الذي يتمثل في الوجود السابق على الاستعمار وفي استمرار الشخصية الجزائرية ، بـل كانت في الوقت نفسه تلفت النظر الى مدارات الصراع بالنسبة للمستقبل .

فنحن نقرأ مثلا في مقال نشر « بالمجاهد » في تاريخ فاتح ديسمبر ١٩٥٧ ما يلي :

« ان الامبريالية الفرنسية لن تفكر جديا في التفاوض والسلم الا بعد ان تستعمل جميع مواردها ولن تستسلم الا في اليوم الذي تنتبه فيه الى انها ضربت الضربة القاضية ، وانه لم يبق أمامها أي مخرج آخر .

ان مسيري الثورة الجزائرية يدركون مدار الصراع وانهم يعرفون من جهة ان كفاح الشعب الجزائري يعرض للخطر مصالح ضخمة اقتصاديـة

واستراتيجية وسياسية ، وان على الثورة أن تواجه نظاما لا يتردد في تعبئة جميع قواه من اجل القضاء عليها • وهم يعرفون من جهة اخرى ان الشعب الجزائري ليست امامه اي طريق لاسترجاع حقوقه الا طريق الكفاح المصمم الذي يجب ان ينتهي بالقضاء على النظام الكولونيالي •

ذلك ان الامر يتعلق باستمرار الاضطهاد الاستعماري من ناحية وباستمرار وجود شعب بكامله من ناحية اخرى • انه خيار لا مناص عنه ••

« ••• ونظرا الى ان الجزائر تحتل مكانة ممتازة في استراتيجية الاستعمار الفرنسي يحاول هؤلاء باستمرار ان يحطموا الاصالة الوطنية للجزائر ، بنهب ثروات واراضي الجزائريين وتسليط استغلال بشع ضدهم • فبعد تحطيم الدولة الجزائرية ، حاول الاستعماريون القضاء على كل روح للمقاومة ، ونصبوا جهازا قمعيا مستمرا يجرد الجزائريين من كل وسيلة مادية ومعنوية للتعبير ويقتل اية محاولة في المهد • لقد اراد الاستعمار ان يجرد الشعب الجزائري من الكرامة ، ويجعله يعيش على هامش التاريخ ، ويدفع به نحو تحلل تمحى معه حتى مجرد ذكر الدولة التي كان قد أنشأها في الماضي » •

وبعد ان يتعرض المقال بالتحليل لاحد مدارات المعركة في المستقبل وهو الصحراء وثرواتها الطاقوية وامكانياتها الستراتيجية يقول :

« ان اهمية الجزائر بالنسبة للامبريالية الفرنسية ما انفكت تتضاعف منذ قرن • فهي بوصفها مستعمرة اسكانية قد اصبحت بفعل امتداداتها الصحراوية وموقعها الستراتيجي ، مفتاح النظام الكولونيالي الفرنسي •

•• وفرنسا اذ تحاول اقامة صرح كولونيالي ضخم على ظهر الشعب الجزائري فانها قد وضعت في حسابها اما اجتثاث الشعب الجزائري أو تأييد عبوديته •

لذلك كان قدر هذا الشعب الجزائري هو احباط هـذه المخططات ، واقامة الدليل على انه ما يزال يتمتع بقواه الحية . وهنا يكمن المدى التاريخي للثورة الجزائرية .

ففي الوقت الذي تحاول فيه الامبريالية الفرنسية تنفيذ المخططات التي تضمن لها ان تستغل بمفردها الثروات الجديدة للصحراء ، وفي الوقت الذي تتزعم فيه الدعوة باوروبا الى استعمار جديد على مستوى افريقيا ، في هذا الوقت ينهض الشعب الجزائري في مجهود جبار ويضطلع بثورة تضمن له :

ـ القضاء على الامبريالية .

ـ بناء دولة مستقلة وديموقراطية .

وذلك يتطلب كفاحا لا هوادة فيه ، ونظرا للمصالح المستهدفة فان هذه المعركة لا يمكن ان تكون الا اهم معركة خاضها خلال تاريخه الطويل » .

هذه الفقرات من هذا المقال الذي كتبه مناضل جزائري ما يزال الان يقوم بواجبه داخل النظام ـ تبرهن على وعي العناصر القياديـة والنضالية للثورة الجزائرية بأهمية المعركة وبتفطنها لمدارات الصراع التي تستهـدف المستقبل دون غفلتها عن تسجيل شرعيتها التاريخية . وهي في نفس الوقت تكشف عن خط الثورة الجزائرية العام ، سواء كان المقال من تحرير فانون أو من تحرير مناضل جزائري آخر .

وهنا نرجع الى النقطة التي تعنينا ، وهو مدى تأثير الثورة الجزائرية في فانون فيما يتصل بقضية اليسار .

لقد كتب فانون في ديسمبر ١٩٥٧ مقالات شديدة اللهجة ضد اليسار الفرنسي بعنوان «المثقفون والديموقراطيون الفرنسيون امام حرب الجزائر» وقد جاء في خاتمة المقال الثالث ما يلي :

« اذا قارنا موقف اليسار الفرنسي بأهداف كفاحنا ، يتضح لنا انه لا يوجد اي قسم من اقسام هذا اليسار يقبل بامكانية تحرير وطني حقيقي .

فاليسار غير الشيوعي يعترف بأنه يتحتم زوال النظام الاستعماري . لكن هذا اليسار وضع عدة مراحل اساسية واخرى فرعية وعدة حلـــول اصيلة ووسطى ، بين تصفية النظام الاستعماري وبين الاعتراف بوجود امة جزائرية مستقلة عن فرنسا .

ومن الواضح ان نهاية حرب الجزائر في نظر هذا اليسار يجب ان تكون مصحوبة بتحقيق نوع من الفيدرالية الداخلية ومن الاتحاد الفرنسي المجدد. فخلافنا مع هذه الفكرة الفرنسية ليس اذن خلافا نفسيا او تكنيكيا كمـا يزعم آخرون . لان اليساريين الراديكاليين والاقلية من الحزب الاشتراكي والحركة الجمهورية الشعبية ، لم يقبلوا بفكرة استقلال الجزائر . وعلى هذا الاساس نجد ان المواقف التي تعلن عن نفسها في هذا القالب ، مثلا : « اننا موافقون على الأساس لكننا نخالفكم فيمـا يتعلق بالأساليب » مواقف مزيفة اطلاقا .

واليسار الشيوعي يطالب من ناحيته بأبقاء علاقات خاصة مع فرنسا في نفس الوقت الذي يعلن فيه عن ضرورة تطور المستعمرات نحو الاستقلال. ان مثل هذا الموقف يدلنا على انه حتى الاحزاب المسماة متطرفة تعتبر ان لفرنسا حقوقا في الجزائر ، وان التخفيف من وطأة السيطرة الاستعمارية لا ينبغي ان يصحبه في نظرها زوال كل رابطة . وهذا التصور الفكري يبرر في شكل نصيحة ابوية تيقنوقراطية ، وفي شكل مساومة على التقهقر والتهديد به مثل قولهم :

ـــ ما تفعلون اذا لم تكن لكم روابط مع فرنسا .

ـــ الستم في حاجة الى فنيين ، الى عملة صعبة ، الى ماكينات ..

ويستعملون في هذا المجال عدة صور : مثل تقديم لوحة رهيبة عن جزائر يتدهور فيها الانتاج وتنتشر فيها الامراض ، كل ذلك من اجل حملنا على التراجع . وهكذا نجد ان الاستعماريين في دعاياتهم يقولون للشعب الفرنسي : ان فرنسا لا تستطيع ان تعيش بدون الجزائر .

ونجد المناهضين للاستعماريين الفرنسيين يقولون للجزائريين : ان الجزائر لا تستطيع ان تعيش بدون فرنسا .

ان الديموقراطيين الفرنسيين لا يلاحظون دائما الطابع الاستعماري او الاستعمار الحديث في موقفهم هذا .

لان المطالبة بروابط خاصة بين فرنسا والجزائر تلبي الرغبة في المحافظة على الاجهزة الاستعمارية، وهذا الموقف نتيجة لوقوع اولئك الديموقراطيين تحت سيطرة نوع من ارهاب الضرورة ، مما جعلهم يقررون انه لا يمكن تحقيق شيء صالح في الجزائر بدون فرنسا . ان واقع المطالبة بروابط خاصة مع فرنسا معناه الرغبة في ابقاء الجزائر ابديا تحت وصاية فرنسا ، ومعناه ايضا ضمان بعض اشكال الاستغلال للشعب الجزائري . في ذلك دليل على عدم فهم اليسار الفرنسي ــ بكيفية خطيرة ــ للآفاق الثورية التي يفتحها الكفاح الوطني .

يتعين على الديموقراطيين الفرنسيين ان يتجاوزوا التناقضات التي تحكم على مواقفهم بالعقم ان كانوا يريدون تحقيق ديموقراطية حقيقية مع الاستعماريين . فعلى قدر مايكون الرأي العام الديموقراطي الفرنسي متجردا من هذا التردد ، بقدر ما يكون عمله نافعا وحاسما .

ان اليسار الفرنسي يكتفي بالعمل من اجل تحقيق جزائر تزيد فيها نسبة الحريات الفردية والعدالة ، او على اقصى تقدير : من اجل جزائر تسيطر عليها فرنسا بصفة غير مباشرة ، لانه متأثر دون وعي بخرافة الجزائر

الفرنسية . فتعلق الرأي العام الفرنسي تعلقا اعمى بالجزائر الفرنسية يضغط على هذا اليسار ويدفعه الى اتخاذ احتياطات مبالغ فيها ، ويزعزع مبادئه . ويضعه في موقف شاذ سرعان ما يتحول الى موقف عقيم .

ان الشعب الجزائري يعتبر ان اليسار الفرنسي لم يقم بواجبه في نطاق حرب الجزائر . ان المسألة بالنسبة لنا ليست اتهاما للديموقراطيين الفرنسيين ، ولكننا نريد ان نلفت نظرهم الى بعض المواقف التي تبدو لنا متعارضة مع المبادىء المناهضة للاستعمار ، التي يتبنونها » .

ان هذا النص الذي نسوقه من فانون عن اليسار يتطلب الملاحظات التالية :

اولا : فانون هنا كان معبرا عن فكر الثورة الجزائرية . اذ نجد مثل هذه الافكار في مقالات اخرى من « المجاهد » لم يكتبها فانون ، كما نجدها في تصريحات ونصوص رسمية للثورة الجزائرية .

ثانيا : كانت مواضيع «المجاهد» تتقرر في اجتماعات هيئة التحرير، وكانت اجتماعات هيئة التحرير في هذه الفترة بالذات ، نهاية ١٩٥٧ ، تتم تحت اشراف عنصر قيادي ، وكانت هذه المساهمة الجماعيةفي اعداد مواضيع « المجاهد » ، تتم على مرحلتين : مرحلة اولى عند اقتراح المواضيع ومناقشة افكارها الاساسية ، ومرحلة ثانية عند الانتهاء من تحرير الموضوع ، وقبل تقديمه للطبع ، اذ يقرأ بمحضر الجميع وغالبا ما تدخل عليه تعديلات .

ثالثا : كتابات فانون التي نشرت في « المجاهد » لا يمكن ان تعتبر ـ لهذا السبب كتابات شخصية صرفه ، ومواضيع « المجاهد » التي كتبها فانون تمثل ٢١ موضوعا من بين الـ ٢٧ موضوعا المنشورة في كتاب « من اجل ثورة افريقيا » . وهنا نمس نقطة حساسة جدا ، وهي التمييز ، في الكتابات التي تنشر باسم هيئة سياسية ، بين نصيب الفرد المنفذ الذي يباشر

التحرير النهائي وبين نصيب الهيئة الجماعية التي تضع تصميم الفكرة ، فهل ذلك ممكن والى أي مدى .

ان اعتبار كتابات فانون في « المجاهد » وقد نشرت هناك بدون توقيع مثل معظم كتابات « المجاهد » خلال حرب التحرير ، صادرة عن فانون وممثلة لوجهة نظره وحده. يؤدي بنا الى نتائج خطيرة، فماذا تكون النتيجة لو ان كل واحد من الذين شاركوا في « المجاهد » او في اعداد اي نصوص اخرى للثورة ، يعتبر انها له ؟ وماذا يبقى من هذه الحالة من الكتابات المعبرة عن وجهة نظر الثورة الجزائرية ؟

اني استطيع ان اؤكد عن يقين بأن معظم الكتابات التي صدرت في « المجاهد » لم تكن نتيجة جهد فردي ، ولكنها كانت نتيجة مجهود جماعي، وانه اذا كانت الصياغة من فعل هذا الكاتب او ذاك فان الافكار الاساسية قد اسهم في تشكيلها مجموعة مناضلين تتحكم في توجيههم مبادىء الثورة الجزائرية .

بل لقد كانت القاعدة المتبعة في وقت من الاوقات ، هي ان تناقش الافكار الاساسية لكل موضوع ، بالتفصيل ، بمحضر مسؤول من الاجهزة القيادية في الثورة ، واحيانا كانت تناقش باسهاب محتويات الفقرات وتسلسلها من البداية حتى النهاية .

وقد اتيح لي ان اشهد بعض هذه المناقشات ، وقد سجلت ملاحظة وجهها عنصر قيادي من جبهة التحرير ، بعد استماعه لفانون وهو يقرأ أحد مواضيعه قبل ان توجه للمطبعة ، انصبت حتى على طريقة التعبير . ذلك ان فانون كان متعودا على تعابير فرنسية القالب وفرنسية الروح ايضا . ولهذا لاحظ له المسؤول المذكور الفرق بين فرنسة القالب وفرنسة الروح وقال له ما معناه : نحن الجزائريين لا يمكن ان نستعمل مثل هذه التعابير ، اذ لا يمكن ان تصدر الا عن فرنسي .

فقد كان فانون لا يتفطن ــ في بدايات تعبيره عن وجهة نظر الثورة ــ للتعابير التي تؤدي الى اصباغ العظمة على فرنسا ، في حين كـان المناضل الجزائري آنذاك في حاجة الى تجريدها من كل عظمة ، تزويدا لحماسه ، وتغذية لنضاله ؛ وشدا لأزره .

ان توجيهات وملاحظات مثل هذه قد صدرت فعلا لفانون وظهـرت آثارها على كتاباته ؛ فكيف يمكن في هذه الحالة فصل ما هو لفانون مـن الافكار وما هو توجيه من الثورة الجزائرية صراحة او ايماء .

وعلى هذا الأساس فمن الصعب اعتبـار أن ما نشر مـن مقـالات « المجاهد » بين دفتي « من أجل ثورة افريقيا » منسوبا الى فانون ، من انتاج فانون وحـده .

وقد كان فانون نفسه متفطنا لهذه الحقيقة ، فهو في كتابه « الثـورة الجزائرية في عامها الخامس » (سوسيولوجية ثورة) لم ينسب الى نفسه موضوعا كان نشر في « المقاومة الجزائرية » الصادرة بتاريخ ١٦ ماي ١٩٥٧، عن المرأة الجزائرية . ذلك ان الموضوع كان قد تقرر في اجتمـاع لهيئـة التحرير ، نوقشت فيه أفكاره الأساسية ، ولذلك نشره فانون رغم أنه هو الذي كتبه ــ على اساس انه نص رسمي يعبر عن وجهة نظر مسؤولي جبهة التحرير الوطني ، فقد نشر النص المذكور تعقيبا على الفصل الاول من كتاب « الثورة الجزائرية في عامها الخامس » ، بعد ان قدم له بما يلي :

« هذا النص الذي ظهر في المقاومة الجزائرية ، الصادرة بتاريخ ١٦ ماي ١٩٥٧ يعبر عن مدى ادراك مسؤولي جبهة التحرير الوطني للدور الهام الذي تلعبه المرأة الجزائرية في الثورة » .

وتجدر الاشارة هنا الى ان « المقاومة الجزائرية » لم تكن كتاباتهـا

تعتبر مسثلة لوجهة نظر الهيئات القيادية للثورة دائما : فقد كانت هناك ثلاث طبعات للمقاومة الجزائرية لم تكن متصلة ببعضها البعض من جهة ؛ ومن جهة أخرى لم تكن الهيئات القيادية آنذاك قد نظمت الاتصال فيما بينها . ولم تكن قد تغلبت بعد كليا على مشكل المسافات . ولم تكن قد طورت اسلوب الاتصال اللاسلكي كما حدث فيما بعد .

اما « المجاهد » فقد كان يعتبر هو اللسان الوحيد للثورة الجزائرية ، اذ ألغيت الطبعات الثلاث لـ « المقاومة الجزائرية منذ جويليه ١٩٥٧ . بعد ان قررت لجنة التنسيق والتنفيذ (اعلى هيئة قيادية للثورة آنذاك) » توحيد اللسان الناطق باسم الثورة في « المجاهد » واعتبار ما ينشر فيه رسميا ومعبرا عن وجهة نظر جبهة التحرير الوطني .

وهذا هو الاساس الذي اعتمده بعض الباحثين في جمع نصوص الثورة الجزائرية . كما فعل ماندوز . ومن هنا نجد ان بعض مقالات « المجاهد » والتي نشرت في كتاب « من اجل ثورة افريقيا » ، منسوبة الى فانون ، موجودة في كتاب « الثورة الجزائرية من خلال النصوص [١٦] » . فنحن نجد في الصفحة ٥٠ من المؤلف المذكور مقتطفات بعنوان « الاستعمار غير قابل للتبرير أساسا » ، أخذت على انها تمثل وجهة نظر الثورة الجزائرية ـ وهي فعلا كذلك ـ لانها نشرت في « المجاهد » ، ونفس المقال نجده منسوبا لفانون ـ وهو فعلا كذلك ـ ضمن مجموعة مقالات « من اجل ثورة افريقيا » .

وفي اعتقادي ان فانون لو ظل حيا بعد الاستقلال ، لما كان يرضى بنسبة كل تلك المقالات الى شخصه، فقد كان معروفا بأمانته العلمية، وبحرصه على رد الامور الى مصادرها ، كما يدل على ذلك عمله في (الثورة الجزائرية في عامها الخامس) عندما ادرج فيه مقالا نسبه الى الجبهة ، ولم ينسبه الى نفسه كما أشرنا الى ذلك آنفا .

وفي اعتقادنا ان نشر المقالات التي كتبها فانون في « المجاهد » منسوبة الى فانون فكرا وتحريرا رغم الظروف التي كانت تحف بصياغتها . ودون أدنى شرح لتلك الظروف، ومن غير أي تقديم يهيء القارىء لكي يتصورها، في اعتقادنا ان ذلك يعتبر عملا غير علمي ، انه تصرف يؤدي الى تجريدها من صفتها الاساسية كنصوص صدرت عن الثورة الجزائرية ، وبالتالي يدخل عنصرا من عناصر المغالطة ، فما اسهل والحالة هذه ان تؤخذ تلك النصوص ـ وهو ما تم بالفعل ـ على انها كتابات خالصة لفانون تمثل نظرياته الخاصة ، وما اسهل نتيجة لذلك ان يقال ، ان تأثير فانون في الثورة الجزائرية كان حاسما !

ان كثيرا من كتابات فانون ـ مثل اداتته لليسار الفرنسي ـ تشتمل على تحليل موفق فعلا . لكنها في الواقع لا تزيد على ان تعكس احساس القواعد النضالية للشعب الجزائري فمن منا (ان من ابناء الجيل الذي عاصر الثورة وعايش الحركات الوطنية قبل نوفمبر ١٩٥٤) لا يذكر مثلا تلك النظرة التي كان ينظر بها الشعب ، قبل ثورة نوفمبر الى الاستعمار ومن منا لا يتذكر حكم الشعب على كل من يعمل بالادارة الفرنسية بأنه مشبوه حتى يثبت ما يخالف ذلك .

ان تلك الجذرية التي كانت تلمس في موقف الجزائريين بصفة عامة ترجع الى طبيعة الاستعمار الفرنسي بالجزائر ، الذي كان كليا ، اباديا ... كان نجاح الاستعمار الفرنسي بالجزائر يستلزم ابادة الشعب الجزائري والقضاء على كيانه معنويا ، بل وماديا ان اقتضى الحال ووجد الى ذلك سبيلا .

ولذلك لم يكن بد من اتخاذ ذلك الموقف الجذري ، من طرف الجزائريين لانه كان هو الموقف الوحيد المعقول تجاه محاولات الاستعمار .

وليس هناك شك في ان فانون كان ايضا من صنف المثقفين الذين يتخذون المواقف القصوى ولا يهضمون المواقف المترددة . كانت الظروف

التي تحكست في تكوينه قد هيأته لهذه الجذرية ، وساعدت في الوقت نفسه على انضمامه للثورة الجزائرية واندماجه فيها فانسجم مع خطها وتفاعل مع جذريتها ، وعبر عن ذلك احسن تعبير ٠

وذلك هو السر الذي يفسر لنا ظاهرة مزدوجة فيحياة فانون الفكرية خلال حرب التحرير : ظاهرة انسجامه مع القواعد النضالية ، والعناصر القيادية المكافحة في الميدان ، اكثر من انسجامه مع العناصر المثقفة ٠ صحيح ان هناك من المثقفين الجزائريين من كان يفسر تلك الظاهرة بأن فانون كان « انتهازيا » يحرص على ترضية عواطف العناصر التي تحتل مناصب رئيسية في صفوف الثورة ٠ لكني اعتقد ان تعاطف فانون مع المواقف القصوى التي نجدها عند القواعد النضالية ، كان تعاطفا صادقا وليس مفتعلا ، يفسره ما ذكرناه ٠ وهذا بالضبط هو الذي يفسر نجاح فانون في التعبير عن الخط الفكري للثورة الجزائرية ٠

اذن فنحن عندما نؤكد تأثير الثورة الجزائرية في فانون ، لا نقصد الى التجني عليه أو القدح في قيمته ٠ ان نسبة جزء من اعماله الى الثورة الجزائرية والكشف عن مدى تأثيرها في تفكيره ليس انكارا لقيمته ٠ وقد سبق لرومان رولان ان لاحظ بان قيمة ثورة ما تظهر من خلال قيمة الرجال الذين تصهرهم ٠

ان تبين هذا التأثير امر ممكن بالتتبع الكرونولوجي لكتابات فانون والتصنيف الزمني لها ، مع اجراء مقارنه بينها وبين نصوص الثورة الجزائرية ونصوص الحركة الوطنية الجزائرية ٠

لكن هذا العمل لم يقدم عليه حسب علمنا ، اي احد من الذين تعرضوا لفانون وحللوا كتاباته ٠

وانعدام مثل هذه الدراسة هو الذي جعل معظم الذين تعرضوا لفانون حتى الان يستنتجون من وجود مشابه بين كتابات فانون وبعض النصوص النظرية للثورة الجزائرية ان تأثيره كان حاسما في الثورة ، حتى ان بعضهم حاول ان يرجع تأثير فانون الى وادي الصومام ان لم يحاول التقدم به الى ايام نوفمبر ١٩٥٤ . في حين ان فانون في تلك المرحلة كان ما يزال مثل كثير من المثقفين يتضامن مع القضية الجزائرية ويتعاطف معها تعاطف الليبيراليين الفرنسيين .

ومهما يكن من شيء فقد قطع فانون صلته باليسار الفرنسي ، منذ ١٩٥٧ ، ورحل عنه نهائيا .

---

(١) المثقفون والديموقراطيون الفرنسيون امام الثورة الجزائرية . توجد ضمن مجموعة « من اجل افريقيا ص ٨٥ ـ ٩٩ من الطبعة الفرنسية .

(٢) موريس فوريز . نصوص مختارة عن الجزائر ـ نشر الحزب الشيوعي الفرنسي . بدون تاريخ لكن من المؤكد انه نشر بعد وقف اطلاق النار في الجزائر لاشتماله على نص بتاريخ ٢٢ مارس ١٩٦٢ .

(٣) نفسه . ص ٦ .

(٤) نفسه ١٨ .

(٥) نفسه . ص ١٩ .

(٦) طوماس ولنار . ص ٥٤ ـ ٥٣ ـ لوسوي . باريس ١٩٧٠ .

(٧) نفسه . ص ٥٤ .

(٨) جان روس . احاديث في قضية الاستعمار . ص ١٩١ .

(٩) نفسه . ص ١٨٧ .

(١٠) نفسه . ص ١٩٧ .

(١١) فرانسيس جونسون . تعقيب على « بشرة سوداء ـ اقنعة بيضاء » . ص ٢١٣ .

(١٢) سيمون دي بوفوار : قوة الاشياء . ص ٦٢٤ .
(١٣) نص أوردته مجلته الصادرة بتاريخ فبراير ١٩٦٥ . ص ٧٧ .
(١٤) نفسه .
(١٥) فانون ـ الثورة الجزائرية في عامها الخامس (النص الفرنسي) ص ٦٤ .
(١٦) نشر ماسبيرو باريس ١٩٦١ .

- ٥ -

الأكتشاف

كانت اول هزة عميقة غيرت نظرة فانون في تفاعله مع الثورة الجزائرية، قد تناولت العلاقة بينه وبين اليسار الفرنسي .

لان فانون اصبح ، بعد اندماجه في الثورة الجزائرية ، يشاهد الحقائق من خلال واقع ساخن ، عار ، بعيد عن ضباب التجريد وتلوينات التنظيرات الفلسفية التي تزدهر في مقاهي باريس ومنتديات المغرومين بسماع انفسهم يتحدثون .

والواقع ان فانون بدأ يكتشف الحقيقة حول المشكلة الاستعمارية ، حتى من قبل اندماجه الكلي في الثورة الجزائرية ، أي فيما بين ١٩٥٥ وهي السنة التي نشر فيها مقالا كان يمثل خطه القديم كما اسلفنا والتي اكد فيها شفاها ، للاشرف ، نفس الخط وبين ١٩٥٧ وهي سنة انخراطه الكلي في الثورة الجزائرية .

فقد كتب مقالا كان أعد ليلقى في مؤتمر الكتاب والفنانين الزنوج الذي انعقد بباريس في شهر سبتمبر ١٩٥٦ ، نشر بعد ذلك في مجموعة « من اجل ثورة افريقيا » بعنوان « عنصرية وثقافة » ، وهو يمثل بداية تحول جديد في نظرة فانون الى الثقافة الوطنية والقيم المنبثقة عنها ، وفيه يقول :

« ان هذه المواقف المتبقية (ويقصد فانون بذلك مواقف العنصرية المتطرفة التي تحاول تبرير العنصرية تبريرا علميا ماديا) في طريقها الى

الزوال . فهذه العنصرية التي تظهر في مظهر العقلانية والحتمية الوراثية والمظهرية تتحول الى عنصرية ثقافية ، ويصبح موضوع العنصرية ليس هو الانسان الخاص ولكن هو نمط وجوده ، وتلتحق «القيم الغربية» بالدعوة الشهيرة الى حرب الصليب ضد الهلال » .

نحن هنا حقا امام لغة جديدة وفكر جديد يختلف كل الاختلاف عن لغة وفكر « بشرة سوداء اقنعة بيضاء [1] » .

ويقول فانون في نفس المقال :

« ان العنصرية ليست الا عنصرا من مجموعة واسعة هي مجموعة القمع المنظم الذي يمارسه الشعب . اذ ما هو سلوك شعب يمارس الظلم ؟ اننا نجد هنا قواعد لا تختلف . فنحن نشاهد تخريب القيم الثقافية ، وانماط المعيشة ، وحتى اللغة واللباس والتكنيك يقع الحط من قيمتها ، فكيف يمكن تفسير ذلك ؟

ان علماء النفس الذين يفسرون كل شيء بتموجات الروح ، يزعمون بأن تفسير ذلك مرجعه الى الاتصالات بين الأفراد : انتقاد غطاء الرأس وانتقاد لهجة الكلام وطريقة المشي الخ ...

ان مثل هذه المحاولات تتجاهل عمدا الخاصية الاساسية للوضعية الاستعمارية ، والواقع ان الامم التي تقوم بحرب استعمارية لا تهتم بمواجهة الثقافات ، فالحرب صفقة تجارية ضخمة يجب ان يخضع لها كل شيء . وفي هذا الاطار يعتبر اخضاع السكان الوطنيين بأقسى ما في الاخضاع من معنى ، ضرورة اولية .

ومن أجل ان تتم هذه العملية يجب تحطيم النظم التي يتعرف فيها الشعب على نفسه . ولهذا نجد ان انتزاع الملكية والتفقير والتخريب والقتل الجماعي يتعزز بتحطيم الاجهزة الثقافية او على الاقل يمهد الطريق لذلك .

وهكذا يختل البناء الاجتماعي ، وتداس القيم وتحطم وتفرغ من محتواها وبذلك تتحطم خطوط القوى اذ تصبح في مواجهة جديدة مفروضة فرضا بقوة المدافع والحراب •

على ان احلال النظام الاستعماري واقامته لا يؤدي الى القضاء على الثقافة ؛ بل الملاحظة التاريخية تكشف عن ان الهدف الذي يريده الاستعمار هو احتضار مستمر للثقافة السابقة بدل القضاء التام عليها • ان هذه الثقافة التي كانت بالامس حية ومنفتحة على المستقبل ، تنغلق على نفسها وتتحجر تحت الضغط الاستعماري ، انها حاضرة لكنها في نفس الوقت محنطة ، انها تشهد ضد اصحابها ، والتحنيط الثقافي يستتبع تحنيط الفكر الفردي • والسلبية التي تسجل على شعوب المستعمرات ليست الا نتيجة منطقية لهذه العملية ، اما مؤاخذة « الاهلي » على الجمود فهو اقصى ما يمكن ان تبلغه سوء النية عند الاستعماريين ، لانه من غير الممكن للانسان ان يتطور في اطار آخر غير اطار ثقافة تعترف به ويعترف بها » •

حقا اننا امام تحول جديد وهام في فكر فانون • وهو تحول نستطيع ان ندرك سببه اذا نحن عرفنا بان الثورة الجزائرية عند كتابة هذا المقال كانت قد اشرفت على العامين وان فرانز فانون كان آنذاك قد قضى نحو ثلاث سنوات في الجزائر • وكان خلال هذه المدة قد تعرف ولا شك على جوانب من القضية الجزائرية ، واتيح له ان يشاهد عن كثب ما تعرضت له الثقافة الوطنية الجزائرية من مسخ وتشويه، وان يلحظ في نفس الوقت الدور الذي لعبته هذه الثقافة في تحريك الثورة المسلحة • وفجأة يتوقف التاريخ عن ان يكون سجنا لمن يستشهد به ليصبح علامة تضيء ومنارة ترشد •

بل ان فانون لا يتردد في ان يؤكد ــ في نفس المقال : « ان الانغماس في الماضي هو شرط الحرية ومنبعها » ليتابع بعد ذلك مباشرة : « ان النهاية الطبيعية لارادة الحرية هذه هي التحرير الكامل للتراب الوطني [٢] » •

وهذا الخط ما انفك يتعزز بعد ذلك ، ويتأكد كلما ازدادت ممارسة فانون للعمل الفكري من داخل مواقع الثورة ، وكلما تمكن أكثر من التعرف على حقائق محركاتها : ذلك ان احتكاكه بالجزائريين أتاح له أن يتعرف على كثير من الحقائق التي كان يجهلها مما وجه قراءاته وأبحاثه وجهة جديدة ما فتئت ان ظهرت آثارها في كتاباته •

فقد كان فانون بالاضافة الى شبابه (لم يكن يتجاوز الثلاثين الا قليلا في عام ١٩٥٦) طلعة ، يريد أن يتعرف على كل شيء ويفهم كل شيء • ونظراً الى أن حيرته التي لمسناها في « بشرة سوداء أقنعة بيضاء » لم تكن قد انتهت به الى خط فكري واضح منسجم ومتكامل ، فقد كان يبحث من خلال الثورة الجزائرية عن تجربة يجد فيها استقراره النفسي والفكري •

وقد عرفنا من الفصل السابق ، ان فانون لم يستطع أن يجد في مذاهب اليسار الفرنسي أجوبة شافية : لان اليسار الأوروبي كان أجنبيا الى حد كبير عن الاهتمامات الاساسية التي من شأنها أن تشد رجلا يشعر بالاضطهاد والعنصرية بسبب انتمائه الى شعب ملون أي غير أوروبي •

أما التيارات الأخرى التي كانت مثار اهتمام في أفريقيا السوداء ، والتي كان من الممكن ان تجذب اليها فانون ، فقد كان أبرزها هو تيار « الزنوجة » لكن فانون لم يقتنع بهذا التيار ، نظراً الى انه كان قد أحس — حتى من قبل تعرفه على الثورة الجزائرية — بأن الزنوجة فلسفة تحاول أن تحل مشكلة الحاضر باللجوء الى أحلام الماضي ، لان الزنوجة كفلسفة، تنطلق من الوعي بسواد البشرة أو من الوعي بعدم بياض البشرة ؛ ثم تتدرج من ذلك الى تمجيد الزنوجة عن طريق البحث في الماضي عن قيم زنجية تمهيدا للوصول الى القناعة بتفوق القيم الزنجية •

ولا يخفى ان المحرك الاساسي لفلسفة الزنوجة هو الانتقام من الأبيض ، الا انه انتقام معكوس وغير ايجابي ، اذ ينصب على الماضي وليس على الحاضر والمستقبل ، وتظهر سلبية هذا الاتجاه في أمرين :

أولا : هو ان الزنوجة توجد عند معتنقها شعور الارتياح والرضى، وبالتالي فهي تساعد على خنق كل ثورة نفسية قد تتحول الى عمل ايجابي •

ثانيا : انصباب الانتقام من « الأبيض » على الماضي لا يستتبع أية مواقف ايجابية في الحاضر ، وهذا نفسه هو الذي يجعل الأبيض المتفوق يستقبل هذه الفلسفة استقبال ترحيب لانها والحالة هذه لا تفسد مشاريع الاستعمار •

ولا شك ان رجلا مثل فانون لا يمكن أن يجد في هذه الفلسفة أي استقرار نفسي أو فكري بل هو قد تفطن لخداع الزنوجة حتى من قبل نوفمبر ١٩٥٤ •

ولا شك أيضا ان السنوات التي قضاها فانون بالجزائر ، قبل اندماجه الكلي في الثورة الجزائرية ، قد ضاعفت تطلعه الى تجربة يجد فيها ضالته ويلقى فيها اجابة شافية عما يواجهه من أسئلة •

فمن الخطأ اذن اعتبار كتابات فانون كلها معبرة عن خط فكري وفلسفي واحد متكامل ، ان جزءا كبيرا منها هو عبارة عن انفعالات ومحاولات فكرية تتطور باستمرار متفاعلة مع الاحداث ومتأثرة بالوضع النفسي للكاتب ، سواء كان وضع متفائل متحمس أو متشائم يائس •

ولهذا يمكن أن نقسم انتاج فانون الى أقسام أو مراحل واضحة متميز بعضها عن بعض •

فهناك عهدان منفصلان عن بعضهما في تفكير فانون : عهد ما قبل الثورة الجزائرية ، وعهد الثورة الجزائرية .

وهذا العهد الثاني ، يمكن ان نقسمه هو الآخر الى ثلاثة أقسام أو مراحل متميزة .

الأولى : مرحلة التعرف على الثورة الجزائرية .

الثانية : مرحلة الاندماج في الثورة الجزائرية .

الثالثة : مرحلة التفكير في نوع من الأممية على مستوى العالم الثالث .

فالمرحلة الأولى ، هي التي يعكسها مقال عنصرية وثقافة ، وقد سبق لنا ان شرحنا بعض مظاهرها . وتعكس هذه المرحلة أيضا، رسالة الاستقالة من منصبه في مستشفى الأمراض العقليــة بالبليدة ، والتــي وجهها الى « الوزير المقيم » روبير لاكوست عام ١٩٥٦ .

فهذه الرسالة تؤكد اكتشاف فانون للشعب الجزائري ، ووجوده المتميز : ان أحداث الجزائر ما هي الا نتيجة منطقية لمحاولة فاشلة تهدف الى محو شخصية شعب .

« ان مهمة التنظيم الاجتماعي هي اقامة مؤسسات يحركها الاهتمام بالانسان ، فالمجتمع الذي يدفع أفراده الى حلول اليأس ، هو مجتمع لا تمكن الحياة فيه ، هو مجتمع مدعو الى ان يعوض بغيره [٣] » .

ويمكن القول بان موقف فانون في هذه المرحلة ، لا يكاد يختلف عن موقف الاوروبيين الأحرار الذين رفضوا أساليب الاستعمار . وأدانوا دون ان يتبنوا كلية مواقف الثورة الجزائرية .

على ان فانون لم ينفك ان انفصل عن خط الليبراليين الفرنسيين ليتخلى عن موقف « الحكم » أو « الواقف على الحياة » ويلتحق بصفوف

المناضلين الجزائريين ، متبنيا لقضيتهم ، مدافعا عنها بكل ما يملك من بلاغة وقلم ، وقوة حماس وحرارة اندفاع ، ويمكن أن تتبين خط التطور هذا من تتبع كتاباته خلال عام ١٩٥٦ وعام ١٩٥٧ •

فاذا كانت رسالة استقالته الى لاكوست عن فانون الليبرالي ، الفرنسي « فان بعض مقالاته في « المقاومة الجزائرية » وفي « المجاهد » تكشف عن بعض العوامل التي دفعته الى الانضمام الكلي والمطلق للثورة الجزائرية ، وقبل ان تتحدث عن بعض هذه العوامل كما تبدو من خلال كتاباته يحسن أن نسجل العوامل المساعدة والمهيئة لهذا التطور التي يسكن استجلاؤها من خارج كتاباته خلال حرب التحرير •

أولا : سبق لنا ان أسلفنا تسجيل تأثر فانون بالهومانيزم الغربي• وقد أتيح لي شخصيا ان ألمس من خلال كلامه مدى هذا التأثر ، كان مؤمنا بالانسان وكان يمجده كقيمة الى حد العبادة ، كان هذا التمجيد للانسان يحل عنده محل الايمان بالله ، كان تمجيده للانسان كقيمة يذكر بتمجيد بعض رجال الثورة الفرنسية للاله « العقل » ولا شك ان هذا الايمان بالانسان قد هيأ فانون لان يحتضن قضية « الانسان » في الجزائر •

ثانيا : فانون بوصفه زنجيا منحدرا من أصول أفريقية لهحساب مع الاستعمار • وقد سبق لنا ان تبينا موقف فانون الراديكالي من التمييز العنصري ولا شك انه بعد التحاقه بالجزائر كرئيس مصلحة في مستشفى الأمراض العقلية بالبليدة قد تمكن من العثور على وجود عامل مشترك بين شعبه والشعب الجزائري ، فعامل الاضطهاد والتمييز العنصري الذي لمسه فانون في معاملة الفرنسيين للجزائريين من شأنهما ان يدفعا فانون الى اتجاه التضامن مع الشعب الجزائري دون غيره من الاتجاهات •

ثالثا : ثقافة فانون وتكوينه الفكري ، بالاضافة الى وضعية شعبه،

كل ذلك يجعل منه شخصا مناهضا للاستعمار • لكن مناهضة الاستعمار هذه لم تكن لتجد عند فانون خلال اقامته بفرنسا الا وسيلة واحدة من وسائل التعبير هي الكتابة النظرية ، اما الكفاح العملي فقد كانت آفاقه مسدودة في وجهه ، لكن ها هي الجزائر التي يعمل بها منذ ١٩٥٣ تخوض غمار كفاح مسلح وها هي هذه الثورة تتطور وتتدعم حتى تفرض نفسها على الجميع • وها هي الفرصة تتاح له لكي يشارك في هذه الثورة عن طريق الخدمات التي يؤديها الى جيش التحرير الوطني •

ولا شك انه مما زاد في جاذبية فانون نحو كفاح الشعب الجزائري انه شعب « افريقي » فهي فرصة لاثبات تفوق الأفريقي على « الأوروبي الأبيض » بشيء آخر غير الهروب الى الماضي الذي يمقته فانون •

هذه العوامل الموضوعية ، تتدعم بعوامل أخرى يمكن استجلاؤها من بعض كتابات فانون •

فمقاله « الجزائر تجاه الجلادين الفرنسيين » (الذي نشر عام ١٩٥٧ بالمجاهد) يمكن ان نستنتج منه بعد الحالات والحوادث التي دفعت فانون كي يتخلى عن موقف « الليبيرالي » المحايد الى موقف المتضامن المطلق وغير المشروط • فهو يقول في هذا المقال :

« خلال الثلاثة الأشهر الأولى من عام ١٩٥٦ ظهرت حالات جنون عديدة عند رجال البوليس •

والاضطرابات التي صاحبت هذه الحالات في المحيط العائلي • مثل تهديد الزوجات بالموت أو تعذيب الأطفال أو حالات الأرق والكابوس ، أو التفكير في الانتحار ، أو الاخطاء المهنية والاشتباك مع الزملاء والاهمال في العمل وتدهور الطاقة والمواقف الوقحة مع الرؤساء — كل ذلك قد تسبب في معالجة هؤلاء المرضى معالجة طبية كما تسبب في نقلهم الى فرنسا أو تحويلهم الى مصالح أخرى (٤) » •

وغير خاف أن هذه الحالات المرضية التي شاهدها فانون وعني بها كطبيب ، لم تخف أبعادها السياسية عنده ، مما ساعد على دفعه الى موقف التضامن المطلق والاندماج الكلي في الثورة الجزائرية .

ولذلك لم تدم المرحلة الأولى من العهد الثاني ـ طويلا ـ فسرعان ما انتقل فانون منها الى مرحلة الاندماج الكلي في الثورة الجزائرية ـ وقد تركت لنا مرحلة الاندماج الكلي ـ وهي الثانية كتابات عديدة وهامة هي « الثورة الجزائرية في عامها الخامس » أو « سوسيولوجية ثورة » ومقالات « المقاومة الجزائرية » و « المجاهد » التي جمعت فيما بعد والتي شكلت القسم الأكبر من كتاب « من أجل ثورة أفريقيا » .

اما كتاب « الثورة الجزائرية في عامها الخامس » فقد كان نتيجة لاجتماع أمرين :

١ ـ الملاحظات التي سجلها فانون بشأن بعض العادات والتقاليد الجزائرية التي أتيح له أن يرى بعض مظاهرها .

٢ ـ النظرة التي تكونت عنده بعد اندماجه في الثورة الجزائرية .

وفي هذا الكتاب يظهر لنا فانون آخر أكثر جذرية من فانون « عنصرية وثقافة » و « رسالة الى المقيم العام » لان النظرة التي تشكلت عنده ، بعد انخراطه الكامل في صفوف الثورة قد لونت مشاهداته وملاحظاته بلون جديد أكثر جزائرية .

فهو في الفصل الأول من الكتاب يتعرض لشرح التكنيك الذي يعمد اليه الاستعمار الفرنسي لتمزيق المجتمع الجزائري والقضاء على شخصيته المعنوية ، ويسجل الدور الذي تلعبه المرأة الجزائرية في الحفاظ على الشخصية الوطنية ومحاولات الاستعمار تجاه المرأة الجزائرية .

وهذا الفصل يظهر لنا مدى تفطن فانون للمحاولات الاستعمارية

الرامية الى هضم المرأة الجزائرية ودمجها في المجتمع الأوروبي ، فهو يقول :

« ان المعلمات والأخوات (المسيحيات) يضاعفن جهودهن ازاء البنات كلما اقتربن من سن البلوغ وتوجه العناية أولا الى الأمهات للتأثير فيهن حتى يتولين بعد ذلك اقناع الآباء . وفي هذا السبيل تقوم المعلمات والأخوات بتمجيد ذكاء البنت والثناء على نضجها ، ويرسمن المستقبل الرائع الذي ينتظرها ويلفتن نظر الوالدين الى جريمة وقف دراسة البنت ، وهنا لا يترددن في التسليم بمساوىء المجتمع الأوروبي ويقترحن النظام الداخلي للبنت ، حتى يتمكن الوالدان من تجنب انتقادات الجيران المحدودي الافق . « وفي نظر اخصائي الشؤون الأهلية يعتبر قدماء المحاربين والمتطورون هم الفرق المكلفة بتحطيم المقاومة الثقافية للبلد المحتل . ومن هنا يتم تقييم الجهات الجزائرية حسب عدد « الوحدات النشيطة » أي حسبما تحتوي عليه من امكانات انجراف الثقافة الوطنية (٥) » .

وفي هذا الفصل يستعرض فانون بعض الأساليب التي يعمد اليها الفرنسيون مثل استغلال الفقر والجوع للنفاد والتسرب الى داخل الأسر الجزائرية بواسطة توزيع السميد ، فمع كل كمية من السميد توزع نسبة معينة من الاستنكار للحجاب (٦) ، وفي هذا الصدد يردد فانون ملاحظة صادقة عندما يؤكد بأن :

« ... البرنامج الاستعماري يعتبر ان المرأة هي التي يجب أن تتعهد بالدور التاريخي في تحريك الرجل الجزائري ، فتحويل المرأة الجزائرية وربحها الى جانب القيم الغربية وانتزاعها من وضعها التقليدي يعني امتلاك سيطرة حقيقية على الرجل وامتلاك وسائل عملية وفعالة لتحطيم الثقافة الجزائرية (٧) » .

وفي هذا النطاق تدخل محاولات السادة الفرنسيين استدراج من يعمل عندهم من الجزائريين لاحضار زوجاتهم في بعض المناسبات مثل الاحتفال برأس السنة الميلادية [٨] ويضع فانون كل هذه المحاولات في نطاقها الصحيح ، عندما يؤكد بأن كل حجاب يسقط وكل جسم يتحرر من « الحايك » (في الاطار الاستعماري دائما) وكل وجه امرأة يتعرض للانظار ، يعبر سلبيا عن ان الجزائر بدأت تتنكر لنفسها ، وتقبل باغتصاب المحتل ، لان المجتمع الجزائري (حين يقبل ذلك) يبدو كأنه يتعلم في مدرسة السيد ، وانه قرر تغيير عاداته تحت ادارة وتوجيه المحتل [٩] » .

ان هذا التحليل الفانوني لميكانيزم الاستعمار من أجل تفتيت الشخصية الوطنية والقضاء عليها من الداخل بواسطة المرأة ، قد بدا لكثيرين اكتشافا فذا اكتشفه فانون . والواقع انه فعلا يعد اكتشافا فذا بالنسبة لكل ملاحظ غربي ، لان الملاحظين الغربيين خلال العهد الاستعماري ، نادرا ما حاولوا النفاذ الى الأعماق ليعرفوا حقيقة الشعب الجزائري . أما فانون فقد كان له من دقة الملاحظة وعمق التحليل ما مكنه من هذا الاكتشاف الخطير .

لكن ينبغي أن نسجل في هذا الصدد ملاحظتين :

الأولى : هي ان الظروف التي عاشها فانون فيالجزائر، سواء كانت ظروف المخاض الثوري أو ظروف انفجار أول نوفمبر قد ساعدت فانون على القيام بهذا الاكتشاف .

اما الملاحظة الثانية ــ وهي التي تهمنا هنا ــ فتتلخص في ان التحليل الفانوني لميكانيزم الاستعمار فيما يتعلق بمحاولاته ازاء المرأة ، كان في الواقع متجاوبا مع الموقف التقليدي الذي اتخذتهالحركات الوطنية الجزائرية سياسية كانت أو ذات طابع ثقافي .

فاذا كان موقف رجل الشارع الجزائري من قضية تعلم المرأة

الجزائرية في المدارس الفرنسية ، وهو موقف يتسم بالعداء والنفور — اذا كان هذا الموقف غير متخذ عن وعي دائما ، فانه كان مبطنا دوما بالخوف من ان يؤدي ذلك الى محو الشخصية الوطنية .

على ان الوعي بهذه الخطورة تجده واضحا في بعض الكتابات الجزائرية ، قبل اندلاع ثورة نوفمبر ١٩٥٤ . بل ان ابن باديس كان ألقى في شهر أوت عام ١٩٢٩ محاضرة بالجزائر العاصمة ، خصصها لموضوع تعلم الرجل والمرأة في الجزائر فضح فيها حقيقة الدعوة « البريئة » الى تعليم المرأة الجزائرية في المدارس الفرنسية . وقد لخص ابن باديس محاضرته تلك ونشرها في عدد مجلة الشهاب الصادر في نوفمبر ١٩٢٩ وقد بدأ مقاله بقوله :

« كنت — وأنا قادم للعاصمة من مصيف « حصن الماء (١) » أحوم حول موضوع اختاره للمحاضرة التي اقترحها عليّ أعضاء النادي (١١) المحترمون ، فوقع فكري على المرأة وحالتها وواجباتها وحقوقها . وبينما أنا أفكر وأجمع أطراف الحديث في شأنها ، اذا أنا برجل مسلم جزائري ببرنوسة وقنورة وقف أمامي — لم يقف أمام حسي ولكن وقف أمام خيالي — وأخذ ذلك الرجل يخاطبني بشدة وعنجهية ويقول :

« انتم تفكرون في تعليم المرأة فلمن تعلمونها ؟ لي أنا الرجل الجاهل ليقع لها ما يقع للعالم الضعيف المغلوب من الجاهل القوي الغالب ، ومن يعلمها ؟ أنا الجاهل ...

أنتم تفكرون في نزع حجابها وخلطها بالمجتمعات . ألا تخافون عليها غيرتي ؟

اذا أردتم التفكير الصحيح والاصلاح المنتج ففكروا فيّ قبلها ، فأنا أبوها وزوجها ووليها ومصدر خيرها وشرها .

وإذا أردتم اصلاحها الحقيقي فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها ، قبل أن ترفعوا حجاب الستر عن وجهها ، فان حجاب الجهل هو الذي أخرها » •

فابن باديس هنا يقرن التطور الاجتماعي المتمثل في تحرر المرأة من الحجاب بالتعليم ••• في نفس الوقت الذي يدافع عن تعلم الرجل ، اذ ما معنى قصر الدعوة على تعلم المرأة دون الرجل ؟ ألا يشعر ذلك بوجود قصد خفي يهدف الى خلق جيل متنكر لماضيه ، متمرد على تاريخه ؟

وفي المحاضرة نفسها يتعرض ابن باديس لقضية تعلم المرأة الجزائرية فيقدم لذلك شروطا محددة اذ يعتبر المرأة انما تكون جزائرية « بدينها ولغتها وقوميتها ، فعلينا أن نعرفها حقائق ذلك لتلد أولادا منا ولنا ، يحفظون أمانة الأجيال الماضية للأجيال الآتية ، ولا ينكرون أصلهم وان أنكرهم العالم بأسره ولا يتنكرون لأمتهم ولو تنكر لهم الناس أجمعون [١٢] » •• « ثم يحدد طريق الوصول الى هذا » فيقول :

« هو التعليم : تعليم البنات تعليما يناسب خلقتهن ودينهن وقوميتهن • فالجاهلية التي تلد أبناء للأمة يعرفونها مثل أمهاتنا ــ عليهن الرحمة ــ خير من العالمة التي تلد للجزائر أبناء لا يعرفونها » •

ومعنى ذلك ان ابن باديس قد أدرك بكل وضوح مغزى الدعوة الى تعليم المرأة الجزائرية في المدارس الفرنسية ، لان ذلك يؤدي الى انفصام الأجيال، والاخلال بالامانة التي يحملها الجيل السابق للجيل اللاحق، والتنصيص على ان المرأة المتعلمة في اطار غير الاطار القومي تنجب أبناء يتنكرون لماضيهم وان الأمية في هذه الحالة خير منها ــ واضح في فهم ابن باديس لدور المرأة الجزائرية في الحفاظ على الشخصية الوطنية •

وقد كان ابن باديس يعكس في هذا المقال تيارا ما انفك قويا في

صفوف الحركات الوطنية الجزائرية وقد أتيح لي أن سمعت مرارا ــ قبل اندلاع ثورة ١٩٥٤ ــ خلال المناقشات التي كانت تدور حول تحرر المرأة من الحجاب ، من الوطنيين الجزائريين من يستعمل مثل هذه الحجج مؤكدا ان سفور المرأة الجزائرية ، دون تحصينها بتعليم عربي ــ اسلامي ، يجعلها تنظر الى الأوروبي على انه هو الرجل النموذجي وليس الرجل الجزائري ، وفي ذلك ما فيه من تقويض لدعائم المجتمع الجزائري .

اذاً فالاكتشاف الهام الذي اكتشفه فانون متعلقا بدور المرأة الجزائرية في الحفاظ على مقومات الشعب ، كان موضوع تنصيص وتسجيل محاضرة من طرف ابن باديس عندما كان عمر فرانز فانون لا يتجاوز الأربع سنوات .

وليس هذا بالطبع قدحا في فانون ولكنها اضاءة جديدة تساعدنا على استجلاء بعض مظاهر التأثير الذي أحدثته الثورة الجزائرية في تفكير فانون . وهو تأثير يرجع ــ وخاصة في هذه المرحلة من مراحل تطورفانون الفكري وهي مرحلة الاندماج في الثورة الجزائرية ــ يرجع الى ان فانون اندمج في هذه الثورة عندما بلغت مرحلة من النضج والتطور أصبح فيها كل شيء واضحا والماضي نفسه أصبح أوضح من السابق على ضوء المعجزات التي حققتها هذه الثورة .

وفعلا فقد كانت التغييرات الاجتماعية والانتصارات السياسية التي حققتها الثورة في ظرف قصير نسبيا ، ملفتا نظر كثيرين الى أهمية الدور الذي لعبته المرأة الجزائرية في الحفاظ على الشخصية الوطنية .

وقد ازداد وضوح هذا الدور بفعل المواقف البطولية التي وقفتها المرأة الجزائرية متعلمة كانت أو أمية ــ خلال حرب التحرير .. وقد سمع فانون غير ما مرة قصص البطولات النسائية التي شهدتها حرب التحرير مثل قصة المرأة الأمية التي استشهد ابنها في معركة فدعيت للتعرف على

جثته فما كان منها ـ عندما عرفت انه ابنها ـ الا ان زغردت فرحا بأنها انجبت ابنا عرف كيف يموت في سبيل الوطن •

وقد كان موقف المرأة الجزائرية وخاصة في الريف ، مضافا الى انتشار الثورة في المناطق الريفية سببا في تغيير نظرة « المتنورين » الى المجتمع الجزائري : فالذين كانوا ينتقدون عقلية « المحافظة » وطابع « الجمود » الذي كان يغلب على المجتمع الريفي قد غيروا نظرتهم ، وشيئا فشيئا أصبح الريف ـ خلال الكفاح المسلح ـ محل اعجاب وتقدير ، بل وكعبة يقصدها حتى المتنورون ، للاسهام في معركة التحرير •

وهذه الحقيقة لم تخف حتى على البوليس الفرنسي ، فقبل قيام الثورة المسلحة ، كان الطربوش هو رمز الوطنية في نظر الفرنسيين ، لانه يكشف عن وجود استعداد للتطور مع الحفاظ على الشخصية والتميز عن الأوروبي • لذلك كان الجزائري الذي يرتدي الطربوش ولو مع البدلة الفرنسية ، مشبوها في نظر الاستعمار • أما بعد اندلاع الثورة المسلحة فقد أصبح الذي يضع على رأسه « الشاش » أو « القنور » مشبوها أكثر • والواقع ان تخوف البوليس الفرنسي في مرحلة أولى من مرتدي الطربوش كان يتجاوب مع فترة الكفاح السياسي الذي تزعمته المدن وغذته الفئات البورجوازية الجزائرية والفئات المثقفة • أما الكفاح المسلح فقد ترعرع في الريف واحتضنته فئات الفلاحين ، ومن هنا أصبح التخوف من الريفي يحتل المكانة الأولى في نظر الاستعمار •

ومهما يكن من شيء فان فانون لم يخطىء في تقدير دور المرأة الجزائرية في الحفاظ على الشخصية الوطنية • وقد رأينا كيف ان تقديره هذا يتلاءم اجمالا مع وجهة النظر التي ما فتئت الاوساط الوطنية الجزائرية تدافع عنها ، اذن فاكتشاف دور المرأة ، واكتشاف دور الثقافة الوطنية

في المحافظ على كيان الشعب وفي صنع صموده وكفاحه : كل من الاكتشافين يمثلان مظاهر تأثير الثورة الجزائرية في فرانز فانون . على ان استفادة فانون من هذا التأثير ، وتسجيله لهذه الظاهرة ذلك التسجيل الرائع الذي ظهر في « الثورة الجزائرية في عامها الخامس » يرجع في نظرنا أساسا الى ان فانون استطاع ان يرى المجتمع الجزائري بعين ثلاثية المنظر ـ ان صح هذا التعبير ـ مما ساعده على اكتشاف معظم الملامح والتضاريس : فقد رآه بعين المثقف الغربي من جهة أي انه كان يمتلك أداة التحليل والتفلسف والتنظير من « خارج » ورآه من جهة أخرى بعين المتعاطف مع هذا الشعب ومع ثورته ، بوصفه كان هو أيضا موضوع عنصرية واستعمار ، ورآه زيادة على ذلك كله من « الداخل » ، بعد التحاقه بصفوف الثورة الجزائرية واندماجه فيها كلية .

وغير خافٍ ان ثورة الشعب الجزائري ـ الافريقي ـ الذي لم تبتلعه الثقافة الغربية رغم أكثر من قرن على استقرارها ، قد دفعت فانون الى التفكير والتساؤل عن السر في ذلك ، وقد سبق لفانون قبل اندلاع الثورة الجزائرية ، ان قام ببعض التحقيقات الميدانية في بعض جهات الجزائر ، وسواء كان مدفوعا الى تلك التحقيقات بدافع الفضول العلمي المجرد أم بدافع العثور على أوجه شبه لتقاليد هذا الشعب مع تقاليد سائر الشعوب الافريقية ، فان الملاحظات التي سجلها قد بدت له ، بعد اندلاع الثورة في ضوء نهار جديد ، فما كان يعتبره مجرد تقاليد جامدة ، متأخرة ، أصبح يشكل جزءا من « الثقافة الوطنية » ، وبسرعة ربط فانون بين ذلك وبين صمود هذا الشعب في وجه عمليات الحث الاستعماري الذي تحول بفضل عوامل أخرى الى مقاومة ايجابية ومسلحة ضد الاستعمار .

ان دور المرأة ودور الثقافة الوطنية لم يكن واضحا للجميع قبل

اندلاع الثورة الجزائرية ، لان الاستعمار كان ــ قبل نوفمبر ١٩٥٤ ــ قد حقق نسبة من الاستقرار حجبت عن الانظار حقيقة الصدام الدائر في الخفاء ، لذلك كان لا بد من انفجار أول نوفمبر ١٩٥٤ لتبين مظاهر هذا الصدام الخفي ومداه وابعاده .

ويؤكد هذه الحقيقة ان بعض قادة الاحتلال الفرنسي في القرن التاسع عشر كانوا قد اكتشفوا مظاهر المقاومة المعنوية للشعب الجزائري ، لان الاصطدام كان على أشده .

يقول الكابتان دونوفو Deneveu في كتاب له عن الزوايا الطرقية ما ترجمته :

« ان المعلمين الأهالي المتشبعين بمبادئهم ، الذين يغذيهم حقد لا هوادة فيه ضد المسيحيين ، ويعميهم التعصب الأعمى ، هؤلاء المعلمون الذين يشتغلون حاليا في التعليم ، يحاولون دائما ان يبعدوا عنا الجيل الصاعد وهو الجيل الوحيد الذي نعتمد عليه (١٣) » .

ويقول تقرير فرنسي كتب في منتصف القرن السابق ، صدر عام ١٩٤٥ ، ما يلي حرفيا :

« ان الجزائر تعرف الآن عهدا جديدا ، فالحرب التي اندلعت فيها حاليا تبدو لنا ذات طابع يختلف عن طابع الحروب التي سبقتها ، فقبل ١٨٣٧ و ١٨٤٢ كان عبد القادر يقاوم بنية تكوين قومية عربية وتشكيل سلطة ذات سيادة ، أما اليوم فان أفكار عدونا قد تغيرت واتخذت الحرب طابعا دينيا (اقرأ ثقافيا) الأمير عبد القادر يعترف الآن ــ على العكس من السابق ــ بعجزه عن طرد المسيحيين من أرض الاسلام . انه يتخلى لهم عن هذه الأرض ، لكنه لا يعترف للمسيحيين بحق حكم وتسيير سكان مسلمين . انه ليس فقط ينازعنا في السلطة الزمنية ، لكنه لا يريد ان يترك تحت نفوذ المسيحيين الضمائر والمعتقدات ، فالذي يتواجه في نظره،

ليس هو العربي والفرنسي ، ولكن هو المعتقدات الاسلامية والمسيحية التي تشغل فكره . ان الحرب الوطنية تنطفىء وتزول ، والكفاح الديني ينمو ويتطور [١٤] » .

ان هذه الفقرة الواردة في كتاب صدر عام ١٨٤٥ تظهر مدى احساس الفرنسيين بالمقاومة المعنوية للشعب الجزائري ، أو بالشكل الثقافي الذي اتخذته هذه المقاومة .

نعم ان الكابتان دونوفو يعتبرها مقاومة دينية . والواقع انها اشمل من ذلك .

واذا كان الطابع الديني فيها أوضح ، فلأن الدين — اي الاسلام — كان هو المسيطر على جميع مظاهر الحياة الثقافية من التعليم الى الطب . الكابتان دونوفو في هذا الكتاب يكشف عن هذه الحقيقة ، ربما عن غير قصد ، عندما يعتبر ان الاستعمار الفرنسي اصطدم بتنظيم كامل ، لان الزوايا والمساجد في ذلك الحين « كانت تلعب في نفس الوقت دور المعبد والمدرسة والملجأ ومكان الاجتماع والمكتبة والمستشفى والمنتدى حيث يتم تناقل الأخبار ... وهذا التنظيم الخفي والقوي معنويا هو الذي كان يسمح للجزائريين بالثقة في اناس يدعونهم باسم الله ومحمد الى الثورة ، وينتزعونهم من أعمالهم الزراعية ، بينما نضطر نحن الى استعمال القوة باستمرار لأجبار الأهالي على اتباع آرائنا [١٥] » .

فظهور الطابع الديني لا ينبغي أن يخفي عنا الطابع الثقافي الأشمل نظرا للعلاقة القوية بين الدين والتعليم وهذا الترابط بين التعليم والدين ومسائل وأهدافا هو الذي زاد في تعقيد المهمة أمام عملية المسخ الثقافي والفكري الفرنسي .

ولم تخف هذه الحقيقة على لاموريسيير الذي لاحظ بحق ان التردد على المدرسة الفرنسية كان يعني في نظر الجزائريين « تعلم دين

الكفار [١٦] » نظرا للعلاقة بين التعليم والاسلام في المجتمع الجزائري خلال القرن التاسع عشر .

وقد أكد لاموريسيير أيضا هذا الترابط بين الدين ومظاهر الحياة الثقافية في جزائر القرن الماضي عندما سجل بان « التعليم العام والمحاكم ليست الا مظاهر نبعت من المسجد الذي يسيطر على كل حركة سياسية وثقافية » . ليضيف بعد ذلك انتعلم « الكتابة عند المسلمين يعني التدرب على كتابة عبارات كتابهم المقدس ، والقرآن نفسه هو أساس التعليم الابتدائي ليصبح بعد ذلك موضوع الدراسة الثانوية وهدف الدراسات العليا [١٧] » .

وتسجل كتابات الفرنسيين في القرن التاسع عشر ، ظاهرة أخرى تكشف عن تداخل ألوان المقاومة الثقافية والمعنوية ، ووجودها على جميع المستويات الشعبية في الوقت نفسه . فهناك نص فرنسي رسمي يرجع الى عام ١٨٤٧ يلاحظ بان الادارة العثمانية قبل الاحتلال الفرنسي لم تكن تضطلع بعبء التعليم ، اذ ان التعليم كان مهمة يضطلع بها الشعب عن طريق الأوقاف التي كان ريعها يخصص الى التعليم والمساجد والزوايا وهذا ما يفسر استمرار المقاومة الثقافية وتغذيتها للمقاومة السياسية اذ ان اضطلاع الشعب بها منذ العهد العثماني ، حال دون ان تسقط هي مع سقوط الدولة . ولذلك بادر الفرنسيون ، منذ سقوط دولة الأمير عبد القادر بمحاولة القضاء على التعليم الجزائري الحر ، واستحوذوا على « ادارة التعليم العام » حسب تعبير بودو ليضمنوا « توجيه الأرواح » حسب تعبير « أومال » . اذن فقد كانت المقاومة الثقافية واضحة للعيان على ضوء الاصطدامات العنيفة خلال الفترات الأولى للاحتلال الفرنسي، واذا كان استقرار الاستعمار الفرنسي وقضاؤه على كل محاولات الكفاح المسلح ، قد جعله يتأكد من نجاحه نهائيا في فرنسة الجزائر ، مما أدى الى

عدم بروز المقاومة الثقافية للجميع ؛ فان ثورة نوفمبر ١٩٥٤ قد سلطت من جديد الاضواء على هذه المقاومة وجعلتها تبدو بشكل أكثر وضوحا •

ذلك ان المظاهر التي اتخذتها المقاومة الثقافية والمعنوية للشعب الجزائري كانت قبل قيام الثورة المسلحة — مظاهر محافظة في معظمها ؛ ومن ثم لم تحظ بالعناية والتأييد من طرف المثقفين الجزائريين • بل كان هناك من هؤلاء المثقفين — قبل الثورة — من يعتبر حجاب المرأة تخلفا يجب تجاوزه • كان التمسك بالتقاليد في نظر كثيرين ؛ مظهرا من مظاهر الجمود والانحطاط وقليل هم الذين كانوا يعطون أهمية خاصة لهذه المظاهر المحافظة فضلا عن اكتشاف دورها الايجابي وفعاليتها ضد الاستعمار •

ولهذا كان موضوع المرأة من بين المواضيع التي دار حولها نقاش كبير فيما بين الحربين : هل تتعلم بالمدارس الفرنسية أم لا ؟

وتجدر الاشارة في هذا الصدد الى ان كثيرا من الأسر الجزائرية التي كانت تسمح بتعلم الابن وتردده على المدارس الفرنسية لم تكن تسمح بتردد البنت على المدرسة الفرنسية ، انها كانت تعتبر تعلم البنت الجزائرية للغة الفرنسية « هو نهاية النهايات » • كان تعلم الابن للغة الاجنبية له أكثر من مبرر ، من بينها ضرورة الخبز وضمان القوت ، أما المرأة فكانت هي الملاذ الذي لجأت اليه الشخصية الوطنية في شبه عفوية ورد فعل تلقائي •

وعندما قامت الثورة الجزائرية وتكشفت هذه الحقيقة ، فكانت بمثابة رد اعتبار لدور المرأة الجزائرية الذي تجوهل طيلة حقب طويلة وأصبحت التقاليد التي كان منظور اليها بعين الشك أو الاحتقار من طرف المثقفين ؛ محل تمجيد •

ويستطيع أي باحث دقيق ان يكتشف دور المرأة الجزائرية في

الحفاظ على الشخصية الوطنية عبر الحرص على ذكرى الثورات السابقة ضد الاحتلال ، وتعهدها ، ففي الاغواط مثلا بالجنوب الجزائري ، توجد مقبرة يطلق عليها السكان مقبرة المجاهدين ، ترجع الى القرن الماضي • وقد كانت نساء الاغواط، قبل نوفمبر ١٩٥٤ يترددن عليها بانتظام التماسا للبركة وتجديدا للذكرى وهذا المثال له نظائر في جهات أخرى من الوطن•

فالحديث عن دور المرأة الجزائرية في الحفاظ على الشخصية وفي الاعداد النفسي للثورة ليس مجرد تخمين نظري •

لقد ألححنا على هذه النقطة ، لكي نستجلي جانبا من الحقيقة المتصلة بتأثير الثورة الجزائرية في فرانز فانون ، وخاصة كتابه « الثورة الجزائرية في عامها الخامس » ولا يعني هذا ان فانون لم يأت في كتابه بأي جديد ، فقد كانت له ميزة تحليل دور المرأة الجزائرية في الحفاظ على الشخصية الوطنية وميكانيزم الاستعمار لتحطيمها (الفصل الأول) وكذلك كان تحليله رائعا للأسرة الجزائرية (الفصل الثالث) وخاصة فيما يتعلق بتسجيل مظاهر التغييرات الاجتماعية التي أدخلتها الثورة على المجتمع • (ص ٣٤ ــ ٣٥ ــ ٣٦ ــ ٤١) • كما ان وضعيته كطبيب نفسي سمحت له بأن يحلل الموقف النفسي للأوروبيين ازاء المرأة الجزائرية (ص ٢٥ ــ ٢٦) •

لكن لا يجوز ان نبالغ في تقدير الابداع الذي جاء به فانون في الكتاب (١٩) المذكور ، فهو كما يستطيع ان يلاحظ الباحث المتعمق ، تحليل عاطفي متحمس • وقد ضاعف من رومانسية اللهجة الفانونية في هذا الموضوع ان أكثر من اشارة توحي بأن فانون كان يود التخلص نهائيا من مواقفه السابقة ؛ أي كأنه يريد التنصل من فانون « بشرة سوداء أقنعة بيضاء » •

فبعد ان كان ينكر كل دور للتقليد ولا يعترف بالماضي ولا بالتاريخ

ولا بالثقافة الوطنية أصبح يؤكد بأن « الثقافة التي كانت مجمدة برية منذ السيطرة الاجنبية يعادلها الاعتبار .

« وهي لا تكون في هذه الحالة موضوع تفكير واستئناف وتنشيط من الداخل ، ولكنها تصبح موضوع اعلان واعتزاز » . وبعبارة أخرى ان فانون كان في حاجة الى هذا التنصل الكلي من مواقفه السابقة التي كان يعتبر فيها نفسه فرنسيا ، ومن هنا كان هذا الحماس ، وكان هذا الاعتزاز والفخار ، وكان هذا التقديس لمظاهر التغيير التي أحدثتها الثورة ومن هنا كانت تلك المبالغة .

ان هذا الطابع الذي اكتساه تناول فانون للمرأة الجزائرية والثقافة الوطنية ، قد ازداد تأكيدا بفعل عامل آخر كان هو أيضا من عوامل انجذاب فانون نحو الثورة الجزائرية وهو عامل الانتماء الى شعب افريقي مكافح ضد الاستعمار .

فاذا كان فانون ثائرا على العنصرية البيضاء واذا كانت الثقافة الغربية قد جذبته سواء بطابعها الهومانيست أو في مظهرها الوجودي أو في شكلها الماركسي ، فانها لم تشبع نهمه الى التحرر لسبب بسيط هو انها كانت تعطيه حريته كفرد لا انتماء له . بل انه لم يغفر لهذه الثقافة انها جرفته في مراحل حياته الفكرية الأولى الى درجة جعلته يعتبر نفسه فرنسيا كاملا .

أما في الثورة الجزائرية فقد وجد هذا التحرر ووجد معه الانتماء الى شعب افريقي لا يمكن ان يرفضه من أجل لونه . وقد أحس فانون بذلك وأكده بقوله : « ان شعبا يخوض غمار كفاح تحرير نادرا ما يبرر العنصرية » .

قال فانون ذلك في ١٩٥٦ ، أو في تلك المرحلة الانتقالية التي سبقت مباشرة انضمامه الكلي للثورة . لانه كان قد شعر ، بأن لونه الذي كان

مصدر تعذيب نفسي أحيانا ، لم يعد كذلك في الجزائر وخاصة بعد قيام الثورة ، فلو كان من أصل فرنسي أبيض ، وانضم الى الثورة ، لكان قبل ولا شك مثل كثيرين لكنه كان سيجد في انقواعد الشعبية من يبدي ازاءه بعض التحرز : « فرنسي ما يخفاكش » . أما فانون فقد أصبح لونه بمثابة جواز مرور يسهل له الاندماج في الثورة ، وليس من المستبعد أن يكون قد وجد بعض الاعتزاز عندما لمس بأنه يفضل عند الجزائريين على أوروبيين آخرين انضموا للثورة .

ولن نختم الحديث عن هذه المرحلة من مراحل تطور حياة فانون الفكرية بعد احتكاكه بالثورة الجزائرية متأثرا بها ، دون ان نسجل نقطة أخرى تبرز مدى تأثره بالثورة الجزائرية ، ففانون كان بحكم الظروف التي تحكمت في تكوينه الفكري ، لا دينيا .. كان لا يؤمن بأي دين . أما الاسلام فقد كان يجهل عنه كل شيء ، ولهذا نجد ان كتاباته قبل الثورة ، لم يكن يتردد فيها ذكر الاسلام لكنه بعد الانضمام للثورة أصبح يتحدث عن الاسلام بأشكال مختلفة ، مستعملا تقريبا نفس الصيغ التي يستعملها الجزائريون .

فهو في البحث الذي قدمه الى مؤتمر الكتاب والفنانين الزنوج (سبتمبر ١٩٥٦) يسجل بأن القيم الغربية تلتحق بالدعوة الشهيرة الى حرب الصليب ضد الهلال . ذلك ان ربط الجزائر بالتاريخ العربي ــ الاسلامي ما انفك موضوع تأكيد والحاح من طرف الحركة الوطنية قبل ١٩٥٤ وبعد اندلاع الثورة .

ويكفي ان نطالع عدد « المجاهد » (الطبعة الفرنسية) رقم ١٧ الصادر بتاريخ أول فبراير ١٩٥٨ لنتأكد من هذه الحقيقة . فنحن نجد في ذلك العدد مقالا بعنوان « الانبعاث الوطني والثورة الديموقراطية » يلح على العناصر الاساسية التي تتشكل منها الشخصية الوطنية الجزائرية

ويرجع تشكل هذه العناصر الى ثلاثة عشر قرنا : مع مجيء الاسلام واستقرار الثقافة العربية • وقد جاء في هذا المقال على الأخص ما يلي :

« لأول مرة في التاريخ تأخذ هذه الشعوب (أي شعوب المغرب العربي) مصيرها بأيديها بعد انتحررت من السيطرة الأجنبية للرومان والوندال والبيرتطين ، لتبقى دوما سيدة مصيرها الى مجيء التوسع الاستعماري الفرنسي في العصور الحديثة •

ان العبقرية الوطنية الجزائرية : قد تشكلت في قالب الثقافة الاسلامية واللغة العربية وقد أعطت الجزائر ، مثل تونس والمغرب الدليل على روحها الخلاقة باسهامها في تشييد وتطوير الحضارة الاسلامية التي تعتبر ــ أي الجزائر ــ واحدة من مراكزها الحقيقية •

والجزائر مثل معظم الشعوب الاسلامية ، قد كتبت أجمل صفحاتها في العصور التي بلغت الحضارة العربية الاسلامية قمتها ، ان هذه العصور من البناء والتقدم التي انصهرت فيها الشخصية الوطنية الجزائرية بقيم ثقافية وروحية محددة هذه العصور هي التي تريد الامبريالية تجاهلها والزج بها في ظلام النسيان •

ان الشعب الجزائري لم ينس ماضيه • فرغم القمع الاستعماري ، استطاع ان يلوذ بقيمه الوطنية كما يلوذ بقلعة محصنة •

وها هي الثورة الديمقراطية اليوم تفتح للشعب الجزائري آفاق تجديد ثقافي واسع المدى •

فمن جهة نجد ان الثورة التي يخوضها الشعب حاليا تتميز بميزة هامةهي دفع مختلف الفئات في الكفاح واعطاء دفعة هامة للقدرات الخلاقة عند الشعب ، وهكذا تتجدد قيم الماضي وينبعث أطهر وأخلد ما فيها مجددة الشخصية الجزائرية لتزودها بديناميكية جديدة •

ومن جهة أخرى فان تحطيم الهياكـل الاستعمارية والاقطاعيـة . بواسطة ما تحدثه من تغييرات عميقة في العلاقـات الاجتماعية ، سيمكـن الثقافة (الجزائرية) من أن تقوم على قواعد متينة ومخصبة .

ان الثقافة العربية ــ الاسلامية التي أمكن المحافظة على جوهرهـا في الجزائر ، رغم الاضطهاد الاستعماري ، ورغم عراقيل الأمية ، وانتشار الجهل ورغم سياسة الادماج ، هذه الثقافة تتطلب عملا فكريا متواصـلا وتجديدا روحيا ، يقرأ حسابا للمكاسب الهامة التي حققها العصر الحديث في جميع الميادين .

لان انبعاث الثقافة الجزائرية ، اذا كان يتمثل فقط في عمل تكييفي ومجابهة ثقافية (سطحية) فانه لن يكون عميقا ولا مخصبا . ان الفرصة الحقيقية للثقافة الوطنيـة الجزائرية رهن بنهايـة الهياكـل الاستعمارية والاقطاعية ، واقتلاع كامل جذورها من الجزائر، انها متوقفة على التحرير الكامل للشعب الجزائري » .

لقد تعمدنا نقل هذه الفقرات من مقال صدر في الطبعة الفرنسية من « المجاهد » ولم نستشهد بمقال صـدر في الطبعة العربية ، حتـى يتأكد القارىء من ان وجهة النظر هذه كانت فعـلا هـي المنتشرة في جميـع أوساط الثورة الجزائرية ، والذي يهمنا من الفقرات السابقة هو اظهـار وتأكيد الموقف النظري للثورة الجزائرية فيمـا يتصل بالطابع العـربي ــ الاسلامي للثقافة الوطنية التي تشكل عنصرا أساسيا وجوهريا من عناصر الشخصية الوطنية للجزائر .

ومن الواضح ان أهمية هذا النص ، تكمن في كونه معبرا عن اتجاه الثورة الجزائرية ابان حرب التحرير الوطني.. فهذا هو الجانب الـذي يهمنا منه ، في مجال الحديث عن تأثير الثورة الجزائرية في فانون . فليس

من محض الصدفة اذن ان تظهر عبارة « الاسلام » في كتابات فانـون ، بعد انضمامه للثورة .

ان اكتشاف الدور الذي تلعبه الثقافة الوطنية في معركة التحرير ضد الاستعمار ، ما انفك يتدعم « عند فانـون ، فقـد رأى من خـلال التجربة الجزائرية الفعل الايجابي الـذي قامت بـه الثـورة الوطنية . فلنستمع الى فانون يحدثنا عن ذلك في كتاب « معذبو الأرض » .

« اننا نرى بين رجال الأحزاب السياسية حينا ، وعلى موازاة هـذه الأحزاب أناسا من أهل الثقافـة المستعمَرين يتخذون المطالبـة بحضارة قومية والبرهان على وجود هذه الحضارة القومية ميدانا لمعركة مفضلة . فبينما نجد السياسيين يتخذون الواقع الراهن ميدانا لعملهم ، نرى رجال الثقافة هؤلاء يضعون نشاطهـم في اطار التاريـخ . ومن الملاحـظ ان الاستعمار لا يهتم كثيرا بالرد على المثقف المستعمر الـذي قرر أن يفنـد تفنيدا عنيفا النظرية الاستعمارية القائلة بأن الهمجية هي التي كانت تسود المستعمرات قبل استعمارها ، لا سيمـا وأن عـددا كبيرا من البـاحثين الأوروبيين قد أخذوا منذ عدة عقود من السنين يحاولـون على وجـه الاجمال ان يردوا الاعتبار الى حضارات افريقيا والمكسيك والبيرو .

وقد استغرب بعضهم الحماسة الشديدة التي يظهرهـا المثقفـون المستعمرون في الدفاع عن وجود حضارة قومية . ولكن الذين يستنكرون هذه الحماسة المتأججة ينسون ان نفسيتهم وان ذواتهم تقتصر مرتاحة وراء حضارة فرنسية أو المانية ، برهنت على نفسهـا ولا يستطيـع أحـد أن يجحدها .

واني لاسلم بأن وجود حضارة ازتكية قديمة ليس له ، على صعيـد الحياة ، كبير شأن . فهو لا يبدل شيئا من النظام الغـذائي الذي يعيش عليه الفلاح المكسيكي اليوم . واني لاسلم أيضا بان جميع البراهين التي

يسكن الاتيان بها على ان حضارة سوتغائية رائعة قد قامت في الماضي لا تبد ل شيئا من الواقع الذي يعيشه شعب سوتغاي اليوم، وهو ان افراد هذا الشعب لا ينالون نصيبهم من الغذاء ؛ ولا يعرفون القراءة والكتابة وانهم مقيسون بين السماء والماء قد فرغت رؤسهم وفرغت أعينهم » .

الى ان يقول ... « ان هذه الحساسة الشديدة وهذا التأجج المحسوم ربما كان يغذيها أو يوجههما على الأقل ذلك الأمل الخفي الذي يقوم في نفوس هؤلاء المثقفين ؛ وهو أن يكتشفوا وراء البؤس الراهن .. عصرا جميلا جدا ساطعا جدا يرد الينا الاعتبار في نظر انفسنا وفي نظر الآخرين أيضا ...

... ان البرهان على وجود حضارة قومية قديمة ، لا يرد الاعتبار فحسب ، وانما هو أيضا على صعيد التوازن النفسي العاطفي ، يحقق للمستعمَر وثبة كبرى [٢١] » .

هكذا نجد ان مفهوم الثقافة الوطنية ، ودورها في تحقيق الانبعاث والتخلص من الاستعمار قد تعمق عند فانون ، حتى أصبح يتكلم عنه بلهجة تقف على طرف نقيض ما كان يؤكده في كتاب من لهجة « بشرة سوداء أقنعة بيضاء » التي كانت لا تريد أن تعرف الماضي ولا تعترف بأي قيمة أو أي اعتبار ، الا ان يكون ماضي الغرب الاستعماري ؟ وهنا أيضا لا ينبغي ان تخدعنا بعض الاسماء التي يقدمها مثل « الازتيك » .

تلك الحضارة القديمة في اميركا اللاتينية أو حضارة سوتغاي ، الافريقية ، فان المثال الذي استخلص منه فانون هذا الدرس هو المثال الجزائري . ان مرحلة « الأمية على مستوى العالم الثالث » . التي وضع « معذبو الأرض » لخدمتها هي التي كانت تدفعه باستمرار الى ايراد تسميات من أفريقيا السوداء أو أميركا اللاتينية تدعيما لهذا الخط . واذا كان قد أتيح لفانون ان يطلع على هذا التاريخ أو ذاك لهذه المنطقة

أو تلك من العالم الثالث ، فانه لم يفعل ذلك الا بدافع التعميم والتأكد من الخط الذي اكتشفه في ضوء التجربة الجزائرية .

وهذا التعميم المتسرع أحيانا هو الذي يعرض فانون للوقوع في بعض الأخطاء الجانبية كما حدث في هذه الفقرة. فالمتعصبون الاوروبيون الذين يتحدث عن محاولتهم رد الاعتبار الى الحضارات القديمة، لا تتدرج اعمالهم دائما في نطاق رد الاعتبار للثقافات الوطنية . فالحقيقة أن هذه العناية الأوروبية بالحضارات السابقة للبلاد الواقعة تحت الاستعمار ، تكتسي مظاهر مختلفة وتحركها بواعث متباينة بحيث لا يمكن الحكم عليها أو لها اجمالا . ان بواعث تلك العناية ونواياها تختلف باختلاف الموضوع ، وباختلاف مصدر العناية وباختلاف العلاقة بينهما .

لتوضيح هذه الفكرة ، نسوق مثالا من عناية المؤرخين الفرنسيين بتاريخ الجزائر القديم . فقد ركز عدة باحثين فرنسيين اضواء كاشفة على ذلك التاريخ لكن ليس بنية رد الاعتبار، لتاريخ الجزائر ولكن بهدف اقامة الدليل على ان عصور الازدهار الحقيقية كانت هي عصور الاستعمار الروماني » . وبما ان روما لا تبنيه مثل فرنسا ، فان الايحاء واضح ، في اعتبار الاستعمار اللاتيني ، وهو وحده مصدر الازدهار والحضارة ، أما ما بين الاستعمارين الروماني والفرنسي فلا يعدو أن يكون « عصورا مظلمة » حسب تعبير المؤرخ الفرنسي غوتييي .

ان حديث فانون عن يقظة الاسلام والاعتزاز بالثقافة العربية في نفس الفصل ، ينبىء بوضوح عن تأثر فانون بالتجربة الجزائرية . واذا كانت هناك أخطاء وقع فيها فانون متصلة بهذه النقطة فلأنه لم يكن مطلعا على حركة القومية العربية وانما ألم بها الماما خفيفا من خلال محاولته فهم محركات التجربة الجزائرية .

وهذا هو السر في ذلك الهجوم العنيف الذي سجله فانون على

المسيحية اذ رأى انها وفدت في رحاب الاستعمار ، وشاهد ان الطابع الصليبي في حروب الاحتلال الأولى للجزائر في القرن التاسع عشر كان واضحا .

وقد دفع ذلك فانون الى ان يفتح عينيه عن حقيقة البعثات التبشيرية المسيحية في افريقيا ، والى ان يبحث حتى يعثر على العلاقة التي تربطها بالاستعمار الجديد . ولذلك يقول في تعميم مدهش :

« يجب أن نضع على صعيد واحد مبيدات الحشرات ناقلة الأمراض : والديانة المسيحية التي تحارب الهرطقات والغرائز والشر في مهدها . ان التقدم في القضاء على الحمى الصفراء والتقدم في نشر دين الأنجيل ، أمران متشابهان . ولكن البلاغات المظفرة التي تنشرها الارساليات التبشيرية تدلنا على ان ضمائر الضياع المنبثقة في جسم الشعب المستعمر هي على جانب كبير من القوة . وحديثي هنا عن الديانة المسيحية ، ولا حق لأحد ان يدهش من ذلك . ان الكنيسة هي في المستعمرات كنيسة بيض ، كنيسة أجانب . انها لا تدعو الانسان الى طريق الله ، وانما تدعوه الى طريق الانسان الأبيض الى طريق السيد المتسلط ، الى طريق الظالم [٢٢] » .

لكن الفرصة لم تتح لفانون ان يعمق اكتشافه فيما يتعلق بالثقافة الوطنية أو الثقافة القومية . ويرجع ذلك الى عاملين :

١ ــ عامل ميله دائما الى تعميم ما يستخلصه من دروس في مكان معين على جميع بلاد العالم الثالث ، وخاصة البلاد الافريقية . لقد كان البعد الافريقي ــ لكي لا نقول الزنجي ــ في اهتماماته واضحا الى درجة تدفعه الى ان يذكر بلدا من أفريقيا جنوب الصحراء أو من أميركا اللاتينية في سياق كلامه عن مبدأ أو فكرة استخلصها من الجزائر .

٢ ـ عامل توقفه المفاجىء بسبب المرض • فكان ذلك الاندفاع المحموم نحو انهاء كتابه الأخير قبل ان يقضي عليه المرض •

أي ان ظروف المرض لم تساعده على انضاج وتعميق الأفكار التي توصل اليها والمبادىء التي استخلصها •

لذلك نجد عنده ؛ هو الذي لم يكن يؤمن بقيم الثقافة الوطنية ويرفض الاعتراف بالقيم الزنجية وبالعالم الأسود؛ نجد عنده ذلك التمجيد البالغ للثقافات الوطنية وذلك الرفض المطلق للثقافة الغربية دون تمييز باعتبارها كلا لا يتجزأ •

والحقيقة ان تحليل فانون لهذه الظاهرة يعتبر سليما بشرط ان يكون منصبا على حالة معينة في ظرف تاريخي محدد ، هي حالة الاستعمار ، أي عندما يكون البلد المتخلف واقعا تحت سيطرة الاستعمار المباشر •

وفي اعتقادنا ان كلام فانون عن الثقافات الوطنية يشتمل على نقطة ضعف تتلخص في صيغة التعميم تلك ، التي تنصب عمليا على ظرف تاريخي معين ، لكنها لا تصلح لان تعتمد في الظرف التاريخي اللاحق بعد التحرر من الاستعمار المباشر •

وهنا مكمن الخطر ، فكتاب « معذبو الأرض » الذي يتوجه بدعوته وصيحاته الى جميع المضطهدين والمسحوقين في العالم ، قد يحمل البعض على أن يفهم بأن المبادىء المستخلصة فيه بشأن هذا الموضوع تنسحب حتى على المستقبل •

ولا تخفى التبعات السلبية التي قد تترتب على ذلك لان رفض القيم العصرية ، حسب تعبير الكاتب الفيتنامي تغوين تقيه : « بسبب أصلها الأوروبي ، هذا الرفض الذي تجده عند رجال ذوي ارادات طيبة مثل فانون ، يوشك أن يتلاءم مع محاولة البعض الذين يهتمون بالقيم التقليدية لتغطية سياسة رجعية صديقة [٢٣] » •

وبعبارة أخرى ان التناقض الأساسي الذي تشتمل عليه كتابات فانون حول هذه المسألة يرجع الى ان ملاحظاته تصدق على ظرف معين من تطور المستعمرات في صراعها من أجل التحرر ، وهي مرحلة التحـرر الوطني ؛ ولا تصدق على مرحلة التحرر من الاستعمار الحديث وهي مرحلة الصراع الحتمي ضد الاستغلال والذي يواجهه البلد المتخلف بعد تحقيق الاستقلال السياسي .

ونظرا الى الاتجاه الذي نجده شائعا في أكثر من منطقـة ، وهـو الاتجاه الى اعتبار كتابات فانون هي انجيل العالم الثالث وانعدام النظرة النقدية في تقييمها ، فان هذا الخطر لا يعود مجرد احتمال نظري .

وانصافا لفانون يجب ان نعترف بأنه ، أي فانون ، لم يتمكن من أن يعيش تجربة ثورية كاملة في بلد متخلف من جهة وانه لـم يتح له ــ من جهة أخرى ــ ان يعيش هذه التجربة بعد الاستقلال . ذلك ان الأثر الذي تخلفه الثقافة الاستعمارية لدى سكان البلد المستعمر ، أثر متعدد الأوجه، ومتناقض الفعل أحيانا .

فاذا نحن اعتمدنا المثال الجزائري الذي ألهم فانـون في معظم مـا كتبه ، فاننا نجد ان الثقافة الفرنسية كانت تهدف الى اخضاع الجزائري وحمله على التسليم بالسيطرة الفرنسية الكاملة .

وقـد كان الجزائري شاعرا بهـذه الحقيقة في اعمـاق نفسـه ، وسواء ارتفع هذا الشعور الى درجة الوعي، أو ظل باطنيا ، فانه كان يملي على الجزائري الكثير من تصرفاته منذ مرحلة الدراسة الابتدائية .

وعلى سبيل المثال ، أسوق هنا تصرف تلامذة الابتدائي في المدارس الفرنسية أثناء الحرب العالمية الثانية .

فقد انشق الفرنسيون ، كمـا هو معروف الى « ديغوليين » والى

« بيتانيين » وقد كانت الادارة الفرنسية بالجزائر في مرحلة الانشقاق الاولى ، من اتباع الماريشال بيتان وكانت فرضت آنذاك على طلبة المدارس تحية العلم الفرنسي كل صباح •

أذكر ان التلاميذ اثناء رفع العلم الفرنسي ، كان يراقب بعضهم بعضا : فالذي يرفع يديه تحية للعلم يعتبر جبانا وينظر اليه زملاؤه نظرة ازدراء وتحقير ولذلك كانت أغلبية التلاميذ ترفض رفع اليد لتحية العلم •

وأذكر ان موقف التلاميذ الجزائريين من دروس التاريخ لم يكن يختلف ، سواء في العهد السابق عن عهد فيشي ، أو في عهد الماريشال بيتان ، أو بعد انتصار الديغوليين • فقد كان النقاش يحتد أحيانا بين التلاميذ وبين المعلم الفرنسي ، عندما يتعرض هذا بالتحقير للامير عبد القادر أو يحاول التقليل من شأن العهد الاسلامي • وكان التلاميذ ، فور انتهاء درس التاريخ واثناء الاستراحة ، يتحلقون حول أكثرهم اطلاعا على التاريخ الوطني ، وغالبا ما يكون من تلاميذ الصف النهائي يستمعون الى تفنيد ما كان يقوله المعلم الفرنسي •

لكن هذا الرفض من الجزائريين المتعلمين للثقافة الاستعمارية ، لم يكن ليتناول كل جوانبها فالمعلومات الرياضية والعلمية التي يتوصلون اليها لا يمكن اطراحها ولا يستطيعون اطراحها حتى ولو أرادوا •

صحيح ان موقف الرفض المطلق الذي يقفه الشعب من الثقافة الاستعمارية • وعدم تمييزها بين ما هو سلبي منها وما هو ايجابي فيها • يشكل عنصر قوة في المعركة من أجل صيانة الشخصية الوطنية •

لكن ذلك لا يمنع وجود معضلات في هذه الثقافة ، تتحول الى عناصر ايجابية في مقاومة الاستعمار ، نظرا لوجود قاعدة ثقافية وطنية تستند اليها •

ان الاستعمار في محاولته اخضاعنا بواسطة المسخ الثقافي ، لم يكن في استطاعته ان يجزىء ثقافته تجزئة كلية وان يفصل الجانب العلمي فيها عن العناصر التي تدمر الشخصية الوطنية • نعم لقد حاول ذلك عن طريق سد بعض الميادين العلمية في وجوه الجزائريين واعتبارها مناطق محرمة عليهم ؛ ولم يترك لهم سوى المجالات الأدبية والملحقة بها •

لكن الميادين التي سمح لهم بدخولها ، كانت تشتمل على مكتشفات عصرية من شأنها ان تلعب دورا ايجابيا ، بشرط ان توجد ارادة سابقة في الوعي أو اللاوعي للتخلص من السيطرة الاجنبية •

وبعبارة أخرى ان الاستعمار في محاولته تسخير ثقافته لخدمة سيطرته السياسية والاقتصادية لم يكن في استطاعته ان يفصل بين الجوانب السلبية والجوانب الايجابية في ثقافته • ولذلك كان يحاول باستمرار ان ينسف القاعدة المعنوية للشخصية الوطنية والمتمثلة في التراث والثقافة بمفومها الأوسع • الا ان الذي حدث هو ان الشخصية الوطنية كانت هي الاقوى ، فكان ان سخرت هي لفائدتها ما تحصلت عليه من فتات الثقافة الاستعمارية ؛ وان تغلبت على العناصر المسيخة التي نجح الاستعمار في كسبها الى صفه والتي كانت تدعو الى الذوبان في المحتل •

ومع اندلاع الثورة المسلحة ، تعزز الاعتماد على الجوانب الايجابية في الثقافة الاجنبية وأصبحت هذه تخدم الحركة الوطنية أكثر مما تخدم الاستعمار •

ومع تحقيق الاستقلال ، استفادت الثورة من العناصر الايجابية في تلك الثقافة وصهرتها داخل المحتوى التقدمي الذي أعطته للبناء الثقافي والبناء الاقتصادي •

ولا يعني هذا اننا نتراجع عما كنا قلناه بصدد الكلام عن « ايجابية

الاستعمار » ، كلا فالذي نعنيه هنا هو ان الاستعمار : في نفس الوقت الذي يريد فيه نشر ثقافته لتأييد سيطرته يكون قد ساهم في وضع عنصر تهديمه ، لان ثقافته هي الأخرى لا يمكن فصل جانبها الفني والعلمي عن جانبها الأدبي والمعنوي • لكن هذه القاعدة لا تصدق بكيفية مطلقة • انها لا تصدق الا عندما تكون هناك قاعدة سابقة من شخصية وطنية ذات ثقافة قومية متميزة • فهنا تستوعب الشخصية الوطنية الاصيلة العناصر الثقافية التي أريد بها اخضاعها ، وتسخرها لخدمة التحرر الوطني في مرحلة أولى ، ثم التحرر الاقتصادي في مرحلة ثانية ، وربما التحرر الثقافي في مرحلة ثالثة •

اذن فالمسألة ليست بسيطة • نعم قد يقال بأن فانون قد أتيح له أن يشاهد تجربة الاستقلال في بعض البلاد الافريقية • وذلك صحيح • بل ان ذلك قد مكنه من تقديم تحليلات رائعة لمشاكل الصراع مع الاستعمار الحديث •

الا ان ما نحن بصدده هنا ، هو التجربة الثورية الكاملة التي تعتمد في مرحلة التحرر الوطني على الكفاح المسلح ، والتي تنتهي منطقيا ، الى مرحلة التحرر الاقتصادي والثقافي بعد الاستقلال •

واذا كان فانون قد وفق في تحليل خط التطور الثوري من العمل الشرعي في ظل الاحزاب السياسية التقليدية ، الى العمل السري ، لانه كان عمليا يحكي قصة ما وقع في الجزائر ، فان تحليله لدور الثقافة الوطنية وقيمتها وصراعها ضد الثقافة الاستعمارية ، صحيح أيضا بشرط أن يكون مقتصرا كما قلنا على مرحلة التحرر الوطني •

وقد رأينا تقديم هذا الاستدراك ، تصحيحا لبعض الاتجاهات التي تميل الى تعميم هذا التحليل الفانوني وسحبه حتى على مرحلة ما بعد

الاستقلال . ولهذا لا يسعنا الا أن نردد مع الكاتب الفيتنامي تغوين نفيه قولـه :

« ان بناء اقتصاد مستقل وثقافة وطنية ، تعتبر مهام مستعجلة لجميع البلاد المستعمرة التي توصلت الى استقلالها . لكن يجب اعطـاء محتوى محدد لهذه المفاهيم . وهنا لا نستطيع ان تتجنب الخيار بين الاشتراكيـة والرأسمالية . اننا لا ننازع في ان كل بلد يستطيع الوصول الى الاشتراكية أو الرأسمالية باشكال وطرق مختلفة، لكن اذا نظرنا الى الأساس من زاوية التاريخ ، نجد ان القوانين التي تسير تطور المجتمعات هي قوانين واحدة . ان اصالة الأمم والشعوب لا تتناقض مع عالمية القوانين التاريخية . فـلا يوجد أي عيب في استخدام العلم حتى عندما يكـون من وضع رجـال ينتمون الى قارات أخرى » .

ان هذا التعديل ضروري وقد استشعر فانون نفسه ضرورة هـذا التعديل ، عندما تنبه في الفصل [٢٤] نفسه الى تغير دلالات التقاليد .

وهنا نجد ان ما قاله فانون بشأن دلالة التقاليد في مرحـلة الكفاح المسلح يمثل ملاحظة صادقة ، لكن ليس بصفة مطلقة .

فقد وقع فانون هنا أيضا في خطأ التعميم بسبب عدم اكتمال التجربة عنده ، كما كنا أسلفنا .

فالمطلوب هنا ليس هو اطراح التقاليد كلية واحدة ، ولكن هو اعادة تقييم التراث (نفضل استعمال تعبير « التراث » على «التقاليد» لانه أكثر دقة وألصق بالموضوع) .

فاعادة تقييم التراث تضمن تأصيل الشخصية الوطنية ، وتزويدهـا بتلك القاعدة الضرورية التي تضمن انفتاحها على القيم والتجارب العالمية دون ان تتعرض لخطر التفكك والتفتيت .

لكن فانون معذور عندما يقع في مثل هذه الاخطاء ، فقد أتم كتابه بسرعة محمومة ، وهو يشعر بأنه في سباق مع الموت • فلم يكن لديه من الوقت ما يكفي لتنسيق ما كتب ، وجمع الملاحظات المتصلة بموضوع واحد ، وازالة ـ أو تفسير ـ ما تشتمل عليه من تناقض •

ولعل فانون لم يكن في استطاعته أن يستشعر هذه الضرورة ، اعادة التقييم للتراث ، لانه لم يعرف من التراث الا الجانب الذي تعبر عنه التقاليد •

وليس من المستبعد أن يكون فانون قد استشعر مع اقتراب موعد الاستقلال ، باكتساء التراث لطابع آخر غير الطابع الذي كان يكتسبه في المراحل الأولى لحرب التحرير الوطني • فالتراث في بداية مرحلة التحرير، يكتسي طابع التبني الكلي له من طرف القوى التي تضطلع بالثورة • انها فترة اندفاع وحماس ورومانسية لا مجال فيها للنقد والفرز • ولهذا نجد ان فانون في « الثورة الجزائرية في عامها الخامس » وفي عدة فقرات من فصول « معذبو الأرض » يعكس هذه الحقيقة ، ويندفع في تمجيد التراث لانه لم يكن يرى فيه الا الجانب الايجابي (٢٥) •

أما بعد ذلك فقد طرأ التغير على موقف فانون من التراث ، نظرا لتعقد الدور الذي يمكن ان يلعبه مع تحقيق الاستقلال واحتمال تسخيره للقيام بادوار يكون بينها من التناقض والاختلاف ما بين القوى التي تريد استغلاله وحسب اختلاف كيفيات استغلاله •

---

(١) فانون من اجل ثورة افريقيا . ص ٤١ ـ ٤٢ .
(٢) نفسه . ص ٥٠ .
(٣) نفسه . ص ٦٠ .
(٤) نفسه . ص ٧١ .
(٥) فانون الثورة الجزائرية في عامها الخامس . ص ١٦ .

(٦) نفسه . ص ١٧ .
(٧) نفسه .
(٨) نفسه . ص ١٨ .
(٩) نفسه . ص ٢٢ . العبارات الموضوعة بين قوسين من عندنا للتوضيح .
(١٠) حصن الماء هو الترجمة الحرفية لاسم Fort de l'eou وتدعى الآن « برج الكيفان » من الضواحي الشرقية للعاصمة الجزائرية .
(١١) يقصد بذلك « نادي الترقي » .
(١٢) الشهاب ج ١٠ ـ ٥ جمادي الثانية ١٢٤٨ هـ ـ نوفمبر ١٩٢٩ .
(١٣) ايفون تورين . المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة (بالفرنسية) ص ١٠٩ .
(١٤) نفسه . ص ١١٠ ـ ١١١ .
(١٥) نفسه . ص ١١٥ .
(١٦) نفسه . ص ١١٦ .
(١٧) نفسه . ص ١٦٧ .
(١٨) نفسه . ص ١٦٨ .
(١٩) الصفحات المشار اليها هنا من كتاب الثورة الجزائرية في عامها الخامس ، هي صفحات الطبعة الفرنسية .
(٢٠) فانون من أجل ثورة افريقيا . ص ٤٩ .
(٢١) فانون « معذبو الأرض » . الطبعة العربية . ص ٢٠٠ .
(٢٢) نفسه . ص ٤٩ . الطبعة العربية و ص ١٠ الطبعة الفرنسية .
(٢٣) تغوين نفيه . مجلة la pensée عدد مارس افريل ١٩٦٣ .
(٢٤) نفسه .
(٢٥) فانون . معذبو الارض . ص ٢١ من الطبعة العربية و ص ٥٥ من الطبعة الفرنسية .

- ٦ -

مسافر ... دون عودة

عندما انضم فانون الى الثورة الجزائرية ، كان انضمامه مطلقا ، كان قد غادر المعسكر الأوروبي نهائيا .

كان حينما سافر من باريس الى تونس في ربيع ١٩٥٧ ، يحدوه أمل كبير في المستقبل لا يترك في نفسه مكانا لنية العودة .

كائن جديد اذن هو ذلك الذي بدأ يشتغل في صفوف جبهة التحرير الوطني، وعلى قدر ما كان حماس فانون قويا وتعلقه بالثورة شديدا، على قدر ما تقبلته الجزائر الثائرة وفتحت له أحضانها ، وبوأته مسؤوليات متعددة، محررا في « المقاومة الجزائرية » ثم في « المجاهد » وممثلا للثورة في المنتديات الدولية يحمل رسالة ديبلوماسيتها ، ومتصلا بممثلي الحركات التحررية في أفريقيا ، الى آخر المهام التي تعبر عن الثقة التي وضعتها فيه ، الثورة .

واذا كانت الفترة الأولى لاشتغاله في صفوف الثورة قد مكنته من اكتشافات هامة ، مثل اكتشافه لدور الثقافة الوطنية ، ودور التاريخ ، واهمية الماضي في صنع صمود الشعب ضد محاولات المسخ والتشويه ، فقد مكنته الاتصالات بالخارج عبر الثورة الجزائرية من اكتشاف جوانب جديدة ، سرعان ما ظهرت آثارها في كتابات فانون الأخيرة .

ان آخر ما كتبه فانون وهو « معذبو الأرض » يسجل بوضوح

تطور الفكر الفانوني الى مرحلة جديدة . كنا أطلقنا عليها تسمية « الأمية على مستوى العالم الثالث » .

وقد يبدو للبعض ان هذا التطور قد ابتعد بفانون عن الثورة الجزائرية التي كانت ثورة وطنية قبل كل شيء ؛ وقد يبدو أيضا ان تأثير الثورة الجزائرية على تفكير فانون في هذه المرحلة، كان قاصراً على تمكينه من تلك الاتصالات مع المحيط الخارجي .

والواقع ان الثورة الجزائرية . نظراً لطبيعتها الخاصة ، كانت أبعد ما تكون عن « المحلية » الضيقة الأفق ، القصيرة النظر . . لقد كان الكادر الجزائري المناضل خلال حرب التحرير ، متفتحا واعيا بكل ما يتصل بقضايا الحرية والتحرير في العالم . وباختصار لقد كانت الثورة الجزائرية تشتمل على بذور مؤكدة لنوع من « الأمية » على مستوى المضطهدين في العالم .

وهذه الخاصية التي اتصفت بها ثورة الجزائر ، لم تكن نتيجة عفوية ، ولم تتحقق بفعل تنظير مثقفين يميلون الى التجريد ، ويعملون بعيدا عن ميدان الممارسة الفعلية ، لمهام الكفاح . لكنها كانت نتيجة طبيعية لمسيرة الحركة الوطنية في الجزائر ولأوجه اصطدامها بالاستعمار الفرنسي .

يعرف كل أحد ان تجربة الاستعمار الفرنسي في الجزائر خلال القرن التاسع عشر وجزء من القرن العشرين كانت تجربة استعمارية « كاملة » حقق فيها الاستعمار ، على امتداد ذلك الزمن ، جميع المراحل التي كان يحلم بها .

وكانت نتيجة ذلك الاستعمار المطلق ، هي شعور الشعب الجزائري — في اعماقه — بآلام كل الشعوب التي تعرضت للاضطهاد ، وتتبعه لجميع معارك التحرير وقضايا الحرية في العالم .

كان الشعب الجزائري ، قبل الحرب العالمية الثانية ، وخلالها وبعدها ، يتتبع من وراء الستار الحديدي الذي فرضه عليه الاستعمار ، أحداث العالم العربي باهتمام بالغ •• ولم يكن هذا التتبع قاصرا على الاطارات ، بل كان واضحا في أحاديث رجل الشعب واهتماماته اليومية • كان رجل الشارع البسيط حتى في القرى البعيدة عن العاصمة ، لا تروقه مثلا خطبة الجمعة الا اذا تعرضت صراحة أو ايماء لما يدور من صراع بين الاستعمار والحرية •

وأذكر ان الموضوع المفضل لاحاديث القرية التي نشأت بها ، كان خلال فترة معينة من الحرب العالمية الثانية ، هو أخبار بغداد وأنباء الثورة على الانكليز • وأذكر جيدا ان نفس القرية لم يكن لسكانها من حديث ، ابان الاحتلال الاسرائيلي الأول في ١٩٤٨ الا أخبار المعركة الدائرة في فلسطين •• وكان فاروق يتحول من ذهن رجل الشارع البسيط الى بطل ، لان هناك من سمع أو توهم انه سمع ــ في الاذاعة ــ ان فاروق ذهب الى جبهة القتال •

وكان التلميذ الذي لم يغادر صفوف المدرسة الابتدائية يسمع خلال الحرب العالمية الثانية بوجود مجلة كانت تصدر في جنيف ، أثر الحرب العالمية الأولى ، بالفرنسية تحت عنوان « الأمة العربية » ، وان شكيب ارسلان كان يشرف عليها ، وكان هناك من التلاميذ من يبحث عن اعدادها •

بل ان أنباء العدوان الايطالي على الحبشة ، عشية الحرب العالمية الثانية كانت تتردد حتى بين الصغار • وأذكر ان بعض الاطفال كان يتصور عندما يسمع دوي طائرة تَهَوّهْ في الفضاء ، (وهو أمر نادرا ما يقع قبل الحرب العالمية الثانية في سماء قريتنا) انها طائرة حبشية ذاهبة لضرب الايطاليين •

وفي نفس الوقت الذي كانت فيه أحداث ماي ١٩٤٥ تحز في نفس الجزائري وتؤجج في نفوس الشباب والمراهقين عوامل السخط والثورة ؛ كان نفس الجزائريين يشعرون بالارتياح لاستقلال سوريا ولبنان •

وعندما بدأت المعركة المسلحة ، راح الاستعمار يبحث عن «اصنام» يلهي بها الجماهير ليصرفها عن حقيقة المعركة • لكن المراحل التي قطعها الاستعمار في الجزائر والصبغة المطلقة التي اكتستها محاولاته الابادية ، حطمت كل الطبقات التي كان يمكن استغلالها في ربح الوقت وفي تزييف المعركة والانتصار • فلم يجد الاستعمار بورجوازية وطنية يستند اليها من خلال حل نصفي ، لانه كان قد حطمها فيما حطم • ولم يجد اقطاعية فلاحية متمكنة تسنده ، لانه كان قد قضى عليها كقوة ذاتية وانتزع الأراضي الخصبة من أصحابها ليقيم مكانهم اقطاعا أوروبيا لا يتنفس الا بهوائه •

ولم يجد الاستعمار فئة رجال الدين ليعتمد عليها ، لانه كان قد تدخل حتى في ميدان الدين رغم الدستور الفرنسي الذي كان ينص على لا دينية الدولة ـ فكان يصر على اسناد المناصب الدينية للعملاء والمأجورين ، وبذلك أصبح رجال الدين صنفين : صنف تعاون مع الاستعمار ففقد ثقة الشعب ، وصنف لم يتعاون معه فكسب ثقة الشعب وعمل في صفوف الثورة •

وكانت نتيجة ذلك كله ان اضطر الاستعمار الفرنسي الى اعادة تجربة الاحتلال الأولى مع كل المضاعفات الزمنية التي يفرضها تقدم العصر واختراعاته المدمرة من ١٨٣٠ ـ الى ١٩٥٤ •

وقد تكشفت الحقيقة تدريجيا للاستعمار الفرنسي ، الذي كان يصر على عدم الاعتراف بها : فقد انهارت الحواجز المعنوية التي أقامها حول

الجزائر ليعزلها عن العالم . وأصبح الجزائري يعرف كل شيء عن العالم الخـــارجي .

ولاحظ الاستعمار ان شعب الجزائر ، ليس فقط قد نجح في اجتياز هذه الحواجز المعنوية ، ولكنه بالاضافة الى ذلك نجح في حمل العالم على اجتيازها نحوه ، فاصبحت الجزائر حديث الجماعات والمؤتمرات والاندية في أركان الدنيا كلها .

كل ذلك ساعد على تزويد الثورة الجزائريـــة ببعد عالمي واضـــح ، وجعل تجربتها تخترق حدود المحلية ، لتسمو الى مستوى التجربة الثورية التي تشتمل على دروس مؤكدة من شأنها ان تفيد حركات التحريـــر في العـــالم .

وزاد من تعميق هذا الطابع ، ان الاستعمار الفـــرنسي ، عندمـــا اختار اساوب الحرب في مواجهة ثورة نوفمبر ١٩٥٤ ، كان مضطرا الى تجسيم المحاولات الابادية التي كانت خفيـــة ، أي انه كان مضطـــرا الى اعطاء مظهر مادي لا يمكن اخفاؤه لحرب معنويـــة ظلت مستمرة لكنهـــا كانت مخفية عن الانظـــار .

فالحواجز المعنوية لعزل الجزائر عن العالم ، أصبحت حواجز مادية تتمثل في السدود المكهربة التـــي أقامها على حـــدود الجزائـــر شرقيهـــا وغربيها . ومحاولة استئصال الشخصية المعنويـــة أصبحت عبارة عـــن عمليات قمعية يباد فيها الاشخاص بدل الأفكـــار . وسمـــوم الثقافـــة الاستعمارية التي لا ترى ، تحولت الى نيران النابالم التي تحـــرق البشـــر والغابات ، الى آخر مظاهر ذلك التحول الذي فرضته طبيعة المعركـــة بين الاستعمار والحرية في الجزائر .

هذه الصبغة الفذة التي طبعت معركة التحرير في الجزائر ، كـــانت

عنصرا هاما من عناصر الجاذبية التي جعلت العالم يتتبع الثورة الجزائرية باتنباه مبطن بالعطف والحماس ، خصوصا وان عدة بلـدان مستعمرة ، وجدت في تجربتها درسا يلهم ومثالا يحتذى .

تلك بعض خطوط الجذب العالمي في الثورة الجزائرية .

وهناك خطوط أخرى فاعلة تؤكد سمو التجربـة الجزائرية فـوق المحليـة .

فقد كان الجنرال ديغول بعد أن ألقى فيميدان المعركة كل ما يتصور من قوى مادية ومعنوية ، وبعد أن عزز القـوات العسكريـة ودعمهـا بمحاولة اقتصادية ـ اجتماعية مثـل مشروع قسنطينـة الذي اعلنـه في ١٩٥٨ .

كان هو أول مسؤول فرنسي تفطـن الى أن « حاضر » المحاولـة الفرنسية محكـوم عليه بالاختناق بين ماضي الجزائر الذي يثير في نفس الجزائري القوة والاعتزاز وبين طموحه للمستقبل ، انبعث الماضي قويـا جبارا وتجددت العناية بالتاريخ في ظل الثورة ، تنفض محاولات الطمس والتزييف ، وتعطي للشعب قاعدة محلية ومعنوية قويـة يعتمد عليهـا ، وكان التطلع للمستقبل ذا طابع تقـدمي واضح نظرا لطبيعـة الثـورة الجزائرية وانفتاحها مع حرصها عـلى المقومات الاساسيـة للشخصيـة الوطنيـة .

الا ان الجنرال ديغول ، رغم استشعاره بهذه الحقيقة ، لم يسلـم بنتيجتها الحتمية في مبدأ الأمر ، وحاول ان يقطع الخيوط المعنوية التـي تربط الثورة الجزائرية بالعالم . حاول ان يوهم الشعب الجزائري بـأن تقرير المصير كما عرضه هو في ١٦ سبتمبر ١٩٥٩ ، هو أحسن عرض يمكن ان تحصل عليه الجزائر . وحاول من جهة ثانيـة ان يصرف العالم عـن

الجزائر بهذا العرض الذي كانت قد نشطت على أساسه الديبلوماسية الفرنسية ، وحتى الغربية ، تلفت النظر الى ما فيه من « سخاء » ومن « واقعية » .

هنا ابتدأت معركة أخرى ، مثيرة ، تبلورت خلالها بعض خطوط الدفع أو الخطوط الفاعلة التي تؤكد خروج الثورة الجزائرية عن حدود « المحلية » .

أليس تقرير المصير هو الحق الذي يطالب به كل شعب مستعمر ؟ فلماذا يستمر الشعب الجزائري في حربه ؟ ذلك مجمل الخط الذي نشطت حوله الدعاية الفرنسية . وفي نفس الوقت انطلقت محاولات خفية لخلق ما يسمى بـ « القوة الثالثة » حتى تكون بديلا عن التفاوض مع جبهة التحرير الوطني .

فكان على الثورة الجزائرية ان تواجه تلك الوضعية بأسلوب في الكفاح يعتمد على المزاوجة بين المعركة المسلحة وبين التفاوض . وكان المعروف عند سكان معظم المستعمرات ان التفاوض يحل عادة محل الحرب جملة واحدة ؛ أي انه اما أن يكون بديلا عن حرب لم تقع وكان من الممكن أن تقع ، واما ان يأتي في نهايتها .

لكن تقرير المصير حسب العرض الديغولي ، اذا كان معقولا في مظهره الخارجي فانه في الواقع كان فخا خطيرا يهدف الى تمكين باريس من مواصلة الحرب إلى مداها ، بعد أن يصرف عنها اهتمام الرأي العام العالمي، توصلا الى فرض الحل الذي يريد، والذي كان في أحسن صوره لا يخرج عن تمكين الاستعمار الفرنسي الجديد من الجزائر .

وكان لا بد آنذاك ان يستمر جيش التحرير في الحرب من جهة ومن جهة أخرى كان لا بد أن لا تتهرب قيادة الثورة من التفاوض حتى

لا تظهر في مظهر من يتهرب من العروض المعقولة • وهكذا تواصلت المعركة المسلحة في نفس الوقت الذي أصدرت فيه جبهة التحرير الوطني بيان ٢٨ سبتمبر الذي يتضمن تحديد مفهوم الثورة لتقرير المصير ، وهو المفهوم الذي انتصر بعد ذلك •

وفي الوقت الذي كان فيه الكفاح المسلح بالجزائر ، يدفع الجماهير، في أكثر من بلد افريقي الى التفكير في سلوك طريق الثورة المسلحة ، كان الصراع السياسي والديبلوماسي مع الاستعمار الفرنسي ، قد كشف للكوادر والطلائع النضالية في غير جبهة افريقيا والعالم الثالث ، ان التفاوض الصحيح لا يمكن أن يستند الى فراغ ، وانه لا بد من كفاح مسلح معزز بارادة ثورية تدعمه ان أريد للتفاوض أن يكون شيئا آخر غير تغطية عملية استسلام •

وقد أتيح لفانون ، سواء اثناء مساهمته في تحرير « المجاهد » أو خلال قيامه بالمهام السياسية والاتصالات الديبلوماسية التي أسندت اليه ، ان يلمس عن كثب تلك الخطوط القابلة والفاعلة التي جعلت الثورة الجزائرية ترتفع الى مستوى التجربة الأصيلة التي يتجاوز اشعاعها المحيط المحلي الى محيط العالم الثالث • كما أتيح لفانون ، خلال ذلك كله ان يتبين من الداخل مختلف أوجه الصراع المعقد ، ما ظهر منه وما خفي ، الذي تواجهه الثورة الجزائرية ، وسرعان ما أدرك ببصيرته النافذة ، الدروس التي يمكن استخلاصها من التجربة الجزائرية وتقديمها للعالم الثالث ، كي يستفيد منها في صراعه ضد الاستعمار القديم •

وقد لمس فانون في الوقت نفسه ، وفي خضم الثورة الجزائرية المسلحة حقيقة مدار الصراع بين الاستعمار الفرنسي وبين الشعب الجزائري ، فقد بات واضحا وخصوصا بعد اعلان المفهوم الديغولي لتقرير المصير في ١٩٥٩ ان الصراع قد تخطى حدود مواجهة الاستعمار القديم ،

ليواجه آلاعيب الاستعمار الجديد وسعيه الى ان يحقق أكبر كسب ممكن من انهزام الاستعمار القديم .

فعلى ضوء هذه التجربة بدت كثير من الحقائق كانت خافية وتأكد ان وسيلة التفاوض عندما لا تستند الى قوة ثورية حقيقية مصممة على تحقيق أهداف واضحة قد تتسبب للشعب في متاعب هي أعقد من متاعب الحرب التي أريد تجنبها .

نستطيع ان نتبين من التحليل السابق ، ان المرحلة التي بلغها تفكير فانون في نهاية حياته ، والتي يمثلها كتابه « معذبو الأرض » كانت نتيجة احتكاكه بالثورة الجزائرية ، ونتيجة ملاحظاته لما كان يجري داخلها وحولها من تحولات وصراعات .

ويمكن ان نتبين مدى تأثر فانون بالثورة الجزائرية ، في هذه المرحلة ، باستعراض بعض القضايا التي أثارها في آخر ما كتب .

لننظر مثلا تقييم فانون لطبقة الفلاحين ودورها في معركة التحرير فهو يقول :

« ان الدعاية التي تتقدم بها معظم الأحزاب السياسية تغفل طبقة الفلاحين دائما مع ان الواضح ان طبقة الفلاحين في البلاد المستعمرة هي الطبقة الثورية الوحيدة . ان هذه الطبقة لا تخشى ان تخسر بالثورة شيئا بل تطمع ان تكسب بالثورة كل شيء. والفلاح المنبوذ الجائع هو الانسان المستغل الذي يكتشف قبل غيره ان العنف وحده هو الوسيلة المجدية ، انه امرؤ ليس حل وسط ولا مجال عنده لتسوية . والقوة وحدها هي التي تحدد في رأيه بقاء الاستعمار أو زواله ، ان هذا المستغل يدرك ان تحرره يقتضي استعمال جميع الوسائل ، وأولها القوة . حين أعلنت جبهة التحرير الوطني عام ١٩٥٦ بعد استسلام غي موللي للمستعمرين

الفرنسيين ، حين أعلنت في منشور شهير لها ، ان الاستعمار لا يرفع يده الا اذا جعلت السكين في عنقه ، لم يجد أي جزائري صادق ان هذه الالفاظ عنيفة . لقد كان المنشور ينطق بلسان جميع الجزائريين ويفصح عما يرسخ في أعمق اعماق ضمائرهم من ان الاستعمار ليس آلة مفكرة ، ليس جسما مزودا بعقل، وانما هو عنف هائج لا يمكن أن يخضع الا لعنف أقوى [1] » .

ان تأثير المثال الجزائري هنا واضح . فقد كان فانون يكتب وهو يستعرض المعجزات التي حققتها جماهير الفلاحين في الريف الجزائري . كان يكتب وهو يتذكر ولا شك ما كان ينقله المجاهدون الذين يتخطون الاسلاك المكهربة الى هيئات الثورة في الخارج ، عن كيفية دوران المعارك ، وما كانوا يقدمونه من صور الحياة اليومية في الريف الجزائري . كان فانون يحرص كلما سنحت له فرصة على التعرف على دقائق ما يجري في الداخل ، وكان نتيجة لذلك ، يعرف ان ثقل المعركة كان يقع على الجماهير الفلاحية في الريف ، وكان يعرف ان ذلك الريف ، الذي كان بالامس مهملا من طرف الاستعمار ، قد اصبح يمسك في المناطق المحررة بزمام الامور ، عسكرية كانت أو مدنية . وكان يعرف ان فلاحي الريف ، استطاعوا ، في خضم المعركة ان يتنظموا تحت قيادة جيش التحرير الوطني، وان ينظموا الحياة المدنية والاقتصادية والاجتماعية ، بما جعلهم يلمسون حقيقة الحرية في نفس الوقت الذي كانوا يواجهون فيه حربا لا هوادة فيها.

والواقع ان هذا الوضع الذي كان عليه الفلاحون في الجزائر لم يقم عفويا أو بصورة تلقائية ، لقد كان نتيجة لتضافر عوامل تاريخية واقتصادية وثقافية وسياسية اهلت الريف الجزائري لان يضطلع بتلك المهمة الجبارة .

فطبقة الفلاحين لا تدرك بداهة كل المكاسب التي تربحها من وراء الحرب . فلا بد ان يسبق ذلك اعداد معين مقصود أو بصفة غير ارادية

لتتكون لدى الفلاحين تلك الخاصية الثورية • فقد كان الريف الجزائري هو معقل المقاومة منذ ان احتل الفرنسيون الجزائر ، وكانت النساء الجزائريات في الريف ، على رغم اميتهن ، يرددن على مسامع الطفل منذ طفولته الاولى ذكريات المقاومة ضد موجات الاحتلال الاولى • وكانت قصص الارض المغتصبة تحتل مكانا هاما بين تلك الذكريات ، وعندما يكبر الطفل ، وتتفتح عيناه على متاعب الحياة ، ويصطدم بمشكل الحصول على الخبز اليومي ، تقفز الى ذهنه ذكرى الارض التي اغتصبت ، ويتخيل صور الأب أو الجد الذي كان يرفل في النعيم ، ويلتصق بكل أمل في تحسين المستوى المعاشي باسترجاع الارض ، ثم تتدخل العادات والتقاليد وكل ما يتصل بالتكوين الثقافي الشعبي فيعمل عمله في جعل الفلاح الفقير اكثر قابلية للثورة •

ولا يجوز ان ننسى ان الريف الجزائري ، وخاصة مناطقه الاشد حرمانا ، ظلت تعيش على هامش الحياة « الفرنسية » • ظل محتفظا بهياكله الاجتماعية ، منغلقا على كل تأثير استعماري، فيكفي ان تتسلح طليعة نضالية بالجرأة وتضرم نار المقاومة ليستجيب لها الريف من اقصاه الى اقصاه ، وهذا ما حدث بالفعل •

ففانون عندما كتب فصله الاول ، كان يعتمد الى حد كبير على المثال الجزائري • ونفس الملاحظة تصدق على ما كتبه بعد ذلك في فصل « الانطلاق العفوي ، عظمته ومواطن ضعفه » • فتحليله للاخطاء التي تقع فيها الاحزاب السياسية ، وتطور هذه بالمدن وتوجهها الى اقلية من الشعب ممثلة في مثقفي وكوادر وعمال المدن ، كل ذلك يكاد يكون تصويرا امينا لما حدث بالجزائر ، ونقلا فكريا دقيقا للازمة التي عرفتها الحركة الوطنية الجزائرية عشية اندلاع الثورة ، وللتطور الذي حدث بعد نوفمبر ١٩٥٤ •

لنقرأ فانون وهو يحلل ما يسميه عفوية الجماهير ، انه يقول في مجال

تحليل الصراعات السياسية التي تنجم داخل الاحزاب الوطنية ، وعدم سماع الاغلبية ، داخل الحزب . لصوت الاقلية الثورية •

« ان آلة الحزب تبدو مستعصية على كل تجديد • وتجد الاقلية الثورية نفسها وحيدة امام تلك القيادة المذعورة التي يقلقها ان تتصور انجرافها في اعصار لا تعرف وجوهه ولا قوته ولا وجهته •

واما الامر الآخر الذي يحدث فيتصل بالقادة الموجهين او القادة الثانويين الذين تعرضوا ، بسبب نشاطهم ، للتعذيب البوليسي الاستعماري• ومن المهم ان نذكر هنا ان هؤلاء الرجال قد وصلوا الى مراكز القيادة في الحزب بفضل نشاطهم الصامد العنيد : وبفضل ما يتصفون به من روح التضحية ، وما يمتازون به من روح وطنية صادقة مثلى • وهؤلاء الرجال الذين صعدوا من القاعدة انما هم في اكثر الاحيان عمال صغار او شغيلة موسميون او شبان عاطلون عن العمل • والانضمام الى حزب وطني لا يعني عندهم ان يعملوا في السياسة وانما يعني انهم يختارون الوسيلة الوحيدة التي تمكنهم من الارتقاء من الحالة الحيوانية الى الحالة الانسانية • ان هؤلاء الرجال الذين يزعجهم تمسك الحزب بالشرعية ، يظهرون في الاعمال التي يعهد بها اليوم مبادهة وشجاعة وحسا نضاليا ، فسرعان ما تكتشفهم قوى القمع الاستعمارية ، فتعتقلهم وتحكم عليهم وتعذبهم ، ثم يفرجون من السجن ، ولكنهم يكونون في اثناء اعتقالهم قد محصوا افكارهم وشحذوا عزائمهم • انهم حين يضربون عن الطعام ، وحين يتضامنون في اعمال عنيفة تقوم بها زنزانة مشتركة في السجن ، يتصورون اطلاق سراحهم فرصة تتاح لهم من اجل الشروع في الكفاح المسلح • وفي ذلك الوقت نفسه ، خارج السجن ، يكون الاستعمار الذي اصبح يهاجم في كل مكان ، اخذ يقدم عروضا للمعتدلين من الوطنيين •

وهكذا يحدث تباعد يشبه القطيعة بين اتجاه التمسك بالشرعية واتجاه

الاستخفاف بالشرعية في صفوف الحزب • ويشعر اصحاب الاتجاه الثاني فهم يشعرون انهم اصبحوا أجانب عن الحزب•وعندئذ يتصل هؤلاء الرجال ويتهربون منهم ، ولئن كانوا يقدمون لهم يد المعونة بعد احتياطات كثيرة فهم يشعرون انهم اصبحوا اجانب عن الحزب • وعندئذ يتصل هؤلاءالرجال باولئك المثقفين الذين اتيح لهم منذ بضع سنين ان يعجبوا بمواقفهم • فيخرج من هذا الاتصال حزب سري يوازي الحزب الشرعي • ولكن أعمال القمع شد هذه العناصر التي لا يمكن استردادها ، وتزداد بازدياد تقرب الحزب الشرعي من الاستعمار املا في تبديله من « داخل » فاذا بفريق اللاشرعية يجد عندئذ نفسه في منعطف تاريخي •

فهؤلاء الرجال المنبوذون من المدن يتجمعون ، اول الامر ، في الضواحي المحيطة بالمدن • ولكن شبكة الشرطة تكشف امرهم ، فيضطرون اخيرا الى ترك المدن نهائيا ، والى الابتعاد عن امكنة الصراع السياسي ، ماضين الى الارياف ، الى الجبال ، الى جماهير الفلاحين • والفلاحون في مرحلة اولى يحتضنونهم فيخفونهم عن اعين رجال الشرطة• والمناضل الوطني الذي يقرر ان يهجر لعبة التقفي التي كان يلعبها مع الشرطة ، وان يربط مصيره بمصير جماهير الفلاحين ، لا يخسر ابدا • ان الفلاحين يغطونه كمعطف ، ويحنون عليه ويحمونه حماية لم تكن تخطر له ببال • وهكذا نرى هؤلاء الرجال الذين نفوا من المدن نفيا ، وانقطعوا عن بيئة المدن التي انضجوا فيها افكارهم عن الامة وعن النضال السياسي ، فقد اصبحوا الان ثوارا حقا • انهم ، وهم مضطرون الى التنقل بغير انقطاع تحاشيا لرجال الشرطة ، والى السير ليلا حتى لا يلفتوا النظر ، يطوفون الآن في البلاد ويعرفونها (٢) ... » •

ان كل من يعرف الخطوط الكبرى للازمة التي هزت الحركة الوطنية الجزائرية قبيل ١٩٥٤ وبعده ، يستطيع ان يتعرف بسهولة على مظاهرها في

تلك الصفحات التي كتبها فانون . بل ان المطلع على تفاصيل تلك الازمة التي ادت الى انفجار اول نوفمبر يستطيع ان يضع اسماء محددة مكان تعابير مثل « العناصر » « الرجال المنبوذون » الخ.. دون ان يختل نسق الكلام .

وبعبارة اخرى اذا كان فانون هنا يسوق كلاما عاما ، يبدو في الظاهر انه يصلح لكل بلد من المستعمرات ، فانه في الواقع لم يزد على ان اعتمد على المعلومات التي استقاها من عناصر عاشت تلك الازمة وعاشرتها وواكبتها ، ثم صاغها في قالب افكار عامة تمشيا مع نسق الدرس الذي اراد ان يستخلصه من التجربة الجزائرية .

صحيح اننا نعثر من حين لاخر ، على ذكر كينيا ، او على ذكر الكونغو او انغولا لكن وصف تطور بعض العناصر الحزبية من العمل في الشرعية الى العمل السري ، وتلك الدقة في تتبع مراحل ذلك التطور ، لا تصدق كاملة الا على التجربة الجزائرية .

وتتأكد صحة هذه الملاحظة عندما توالي قراءة الفصل ، وتتابع وصف فانون لاندلاع الثورة في الريف وظروف انتقالها الى المدن ، اذ يقول :

« ... ونقل الثورة الى المدن يطرح على القيادة مشكلات عسيرة . لقد رأينا ان اكثر القادة قد ولدوا او شبّوا وترعرعوا في المدن ، ثم فروا من بيئتهم تلك تحاشيا لمطاردات الشرطة الاستعمارية ولان القيادات المتعلقة المعتدلة في الاحزاب السياسية لم تفهمهم بوجه عام ، فانسحابهم الى الارياف كان هربا من اعمال القمع من جهة وكان من جهة اخرى يأسا من التشكيلات السياسية القديمة . والاشخاص الذين يمكنهم ان يتصلوا بهم في المدن انما هم الوطنيون المعروفون في الأحزاب السياسية . ولكننا رأينا ان هؤلاء الثوار قد انشقوا عن اولئك القادة الخائفين الذين لا يزيدون على تضييع جهودهم في الكلام عن مساوىء الاستعمار . ثم ان المحاولات الاولى التي

يقوم بها رجال الثورة مع اصدقائهم القدامى هؤلاء ، وخاصة مع الذين يعدونهم اكثرهم تطرفا ، تأتي مصدقة لمخاوفهم وتجعلهم يكرهون رؤية هؤلاء الاصدقاء القدامى . والواقع ان الثورة التي انطلقت في الارياف ستدخل المدن عن طريق ذلك الجزء الذي لم يستطع حتى الان ان يجد في عهد الاستعمار عظما يقضمه . ان الرجال الذين اجبرهم تزايد السكان واجبرهم تجريدهم من املاكهم من قبل الاستعمار على ترك ارض آبائهم واجدادهم يأخذون يدورون حول المدن في غير كلال ولا ملال ، آملين ان يسمح لهم في يوم من الايام بدخولها . فبين هذه الجماهير ، بين هذا الشعب الذي يسكن أكواخ القصدير ، بين هؤلاء الفعلة الكادحين ، انما تجد الثورة حريتها في المدن . ان هذه الجموع السائبة التي فصلت عن قبائلها وعشائرها ، هي بين القوى الثورية في الشعب المستعمر من اكثرها عفوية وجذرية [٣] » .

هذا الجزء ايضا يصدق بكامله على التجربة الجزائرية ، وكذلك الجزء المتعلق بتصوير مخاطر بعض الفئات الفقيرة التي قد تهملها الثورة ويستعملها العدو .

وحتى حين يعمد فانون ، في هذا الفصل نفسه ، الى تحليل ظاهرة عودة قادة الثورة ومسؤوليها الى استعمال الاساليب السياسية بعد ان كانوا نبذوها ، انما كان يصور لنا ايضا التجربة الجزائرية . ونلاحظ هنا ان فانون يحبذ العودة الى الأساليب السياسية والتثقيفية ليس كأداة للتخدير والتضليل ولكن « كوسيلة وحيدة لتقوية الكفاح » لانه كان قد ساهم في بعض الندوات التثقيفية وبعض الحلقات الدراسية التي كانت تعقد من حين لآخر ، بين مجموعة أو أكثر من المناضلين .

فسواء تعلق الامر بالانشقاقات التي تقع داخل الاحزاب الوطنية او اتصل بوصف طريقة اللجوء الى الريف ، ثم العودة الى المدن اعتمادا على

العناصر الريفية الساكنة حول المدن في الاحياء القصديرية . اي بالتحاق العاطلين عن العمل بالثورة او الذين يعيشون على هامش المجتمع . في كل ذلك يبدو الاعتماد على التجربة الجزائرية واضحا .

لكن هناك ملاحظة لا بد من تسجيلها في هذا الصدد تتصل بتلك العفوية التي يتحدث عنها فانون . وخاصة عفوية جماهير الفلاحين في الريف .

فالوصف الذي قدمه فانون والصورة التي اعطاهاعن احتضان الفلاحين للوطنيين الذين اضطرتهم اساليب الساسة المحترفين الى الالتجاء للريف ــ ان ذلك الوصف دقيق وصادق ويصور وقائع تاريخية معروفة في الجزائر .

الا ان احتضان الريف الجزائري والفلاحين لتلك العناصر الوطنية ، لم يكن نتيجة عفوية الريفيين بقدر ما كان نتيجة عمل سياسي سابق ، قامت به نفس التشكيلات الحزبية ، في الريف .

وبعبارة اخرى ، ان الاحزاب الوطنية في الجزائر ــ التي يعتمد عليها فانون في تقديم اهم افكار الفصل عن « الانطلاقة العفوية » . كانت موحدة قبل ان تتعرض لتلك الازمة التي ادت الى انفصال الاقلية الثورية عن المتمسكين بالشرعية ، وكانت قد قامت بعمل سياسي نشيط في مختلف جهات الوطن ، ريفها والمدن .

وخلال مرحلة الوحدة تلك وقعت اتصالات بين بعض العناصر الوطنية التي اصبحت فيما بعد اكثر جذرية ، وبين بعض جهات الريف ، وتركت هذه الاتصالات شبكات وخلايا حزبية في الريف ، وهي خلايا من شأنها ان تكون مرتبطة ــ عبر الاشخاص الذين تتشكل منهم ــ بالعناصر التي جاءت من المدن واشرفت على تشكيلها وتوجيهها .

وهنا يلعب عنصر الثقة دورا هاما : ثقة العناصر الريفية المنظمة بالحزب في العناصر الوافدة من المدن والتي اتصلت بها للمرة الاولى •

فالذي حدث حقا، هو ان العناصر الوطنية المؤمنة بالثورة انما وجدت في الريف ملاذهابفضل اولئك المناضلين الذين ساهمت في تنظيمهم وضمهم للحزب •

ولا يعني هذا اننا ننكر عفوية الريف او ننكر ايجابيتها ، ولكن يعني ان هذه العفوية مشروطة في هذه المرحلة التي يتحدث عنها فانون وهي مرحلة اختمار الثورة ـ بعمل سياسي سابق •

ومن الواضح ان هذا العمل السياسي في المثال الجزائري ، لم يتم فوق ارضية بكر فقد هيأت الريف لاستقباله مجموعة عوامل اقتصادية واجتماعية وثقافية ، وسياسية يطول شرحها بالتفصيل ، وتلعب داخلها دورا خاصا • تلك المقومات الاساسية التي تتشكل منها الشخصية الوطنية ، والتي رأينا في فصل سابق ، فعلها في صنع صمود الشعب • عبر الثقافة الوطنية •

وهناك ملاحظة ثانية « حول هذا الفصل ، تتعلق بما يسميه فانون حسب ما عرب في الترجمة بـ « الطبقة الدنيا من الفعلة الاشقياء » •

ففانون هنا يبدي ملاحظة صادقة عندما يدعو كل حركة تحرير وطني الى العناية بهذه الطبقة ، لانه « اذا ظنت الثورة ان في وسعها ان تستغني عنهم ، فان جموعهم الجائعة المنبوذة ما تلبث ان تخوض غمار القتال وان تشارك في الصراع ولكنها تقاتل عندئذ في صفوف العدو [٤] » •

ثم يعقب توضيحا للفكرة بقوله :

« في الجزائر كانت هذه هي الطبقة التي امدت الاستعمار بالحركة وبالمطالبين فكان فانون هنا يريد ان يقول بأن « الحركية » (وهم صنف من

الاعوان سلحهم الاستعمار واستعملهم ــ وهم جزائريون في محاربة جيش التحرير الوطني)، جندوا من بين طبقة العمال الدنيا التي تعيش حول المدن.

والواقع ان « الحركية » جندوا من بين هذه الطبقة وجندوا ايضا من بين بعض جهات الريف . اي ان تجنيدهم لم يكن قاصرا على هوامش المدن فقط كما يفهم من السياق . اما العناصر الميصالية فلا يمكن وضعها في صف واحد مع الحركية ، لان القواعد المصالية : كانت في اساسها قواعد وطنية ؛ بقطع النظر عن انحرافها واستغلالها من طرف عناصر خائنة او قصيرة النظر. والذي نريد ان نصل اليه من وراء هذه الملاحظة : هو ان الريف على ما فيه من مزايا ومؤهلات ثورية ومؤكدة لا ينبغي ان يبالغ في تمجيد عفويته .

فالامر يتوقف قبل كل شيء على الاعداد السياسي وطبيعة العمل الذي يقوم به ، او لم يقم به ــ المناضلون .

فكلما كانت المنطقة الريفية موضوع توعية سياسية وعمل تنظيمي ؛ كلما كانت اكثر استجابة لداعي الثورة ، واسرع تلبية لمطالب الكفاح، واشد استعصاء على استعمال العدو . وكلما ظلت بعيدة عن العمل السياسي ، كلما سهل استخدامها ضد الثورة ، بفعل تحريك بعض الهياكل التقليدية (الباشغوات والقياد وكبار الاقطاعيين) .

ان مثل هذه الملاحظة ضرورية ، اذا اردنا ان لا نقع في تمجيد مبالغ فيه لعفوية الريف وثوريته . فما قد يبدو لنا عفوية ، كان في الواقع نتيجة اختمار استمر اجيالا . ونتيجة وجود «تاريخية» تطورت في نطاق الاحساس الدائم بوجود متميز عن الكائن الاستعماري . ولذلك يلاحظ مصطفى الاشرف ، بشأن فانون انه على « الرغم من ذكائه وسخاء روحه ، فانه لم يستطع ، ولنقل ذلك بكل وضوح ، ان يدرك الحركات والوان الميكانيزم الاكثر ظهورا في السوسيولوجية السياسية والثقافية للجزائر فزيادة عن

انبهاره الروماني الذي كم هو جذاب ، وزيادة عن استنتاجاته التقريبية والعاطفية التي يدعي انه يتناول بها الافكار الوضعية عن مجتمع ومستقبل العالم الثالث ، فان فانون يقع بالرغم عنه في المحافظية [٦] » .

ويبدو ان التعميم الذي يميل اليه فانون وعدم تمكنه من تعميق الافكار التي عنت له على ضوء « تجارب العالم الثالث وخاصة التجربة الجزائرية » ، هي التي جعلته يقع في تمجيد عفوية الريف ذلك التمجيد الذي قد يؤدي الى ازدهار عقلية تقديس اعمى للريف والتغافل عن العناصر الموضوعية التي تعمل فيه ، سواء باتجاه الثورة او الثورة المضادة .

وتزداد هذه الخطورة بروزا عندما تنضم لها الملاحظة التي سجلها فانون بشأن العنف الاستعماري اذ آكد « ان الاستعمار ليس آلة مفكرة، ليس جسما مزودا بعقل وانما عنف هائج لا يسكن ان يخضع الا لعنف اقوى » .

فالحقيقة ان الاستعمار يعمل بتخطيط وتدبير ، صحيح ان ملاحظة بعض الاعمال التي يرتكبها الاستعمار قد تدفع الى استخلاص هذه النتيجة، فعندما يعمد الى الرد على مصرع شرطي فرنسي بتقتيل عشرات من الجزائريين وعدد من النخبة ، دون محاكمة او عندما يرد على عمل فدائي بتهديم المنازل على سكانها ليلا ، قد تتصور انه ليس آلة مفكرة » .

لكن الوجه التخريبي الابادي المطلق الذي ظهر لنا بوضوح في حرب الجزائر لا يعني ان الاستعمار آلة صماء : لقد كان يفعل ذلك بقصد تحطيم ارادة الشعب وحمله على ان يركع ، ويتخلى نهائيا عن مطلب الاستقلال .

ولذلك لا بد من مواجهته ، الى جانب العنف الاقوى، بالعقل والتفكير وضبط الخطط •

انه مهما تكن اعمال الاستعمار ، في مظهرها وكأنها من فعل عنف خام اهوج لا عقل له ، فان وراءها ، في الواقع ، اهدافا واضحة لا تخفيها ، ووسائل محددة بعضها ظاهر وبعضها خفي •

والملاحظ ان فانون، في غير مكان آخر من الكتاب، يتحدث باسهاب عن خطط الاستعمار في شكليه القديم والحديث ، لتحطيم قوى التقدم والثورة ، يتحدث عن استعماله لمختلف اساليب التفرقة والنعرة القبلية داخل الوطن الواحد ، ولاستغلاله الفروق في اللون لمنع التفاهم او الوحدة بين الاقطار الواقعة شمال وجنوب الصحراء في افريقيا الخ ••

فهل هي السرعة وضيق الوقت وسباق الموت ، التي حالت دون صهر كل الافكار في شكل مذهب متناسق ، ام ان فانون كان يكتفي بتسجيل ملاحظات ، تاركا لغيره مهمة التنسيق والمذهبة ؟ مهما يكن من شيء فأن تقديم مثل هذه التأكيدات مع المبالغة في تمجيد عفوية الريف ، من شأنه ان يؤدي في بعض المناطق التي لا تملك تقاليد عريقة في الكفاح ، الى الوقوع في اخطاء سياسية ، كما تؤدي الى سوء التقدير في اعداد خطط المواجهة وتنظيم قوى الثورة •

بالعكس من ذلك نجد تحليل فانون للاستعمار الحديث ، في الفصل الاول موفقا • فعلى الرغم من عدم تخلي فانون عن عنف اللهجة فانه قد صور تصويرا دقيقا الاستعمار الحديث والوان الميكانيزم التي يحركها • والسبب في ذلك يرجع الى ان فانون قد تمكن من مشاهدة الاستعمار

الحديث في صورتين مختلفتين : شاهده في صورته الخفية ـ من خلال بعض البلاد الافريقية المستقلة ، التي يتحكم الاجانب في مصيرها من وراء حجاب بواسطة عناصر محلية (وطنية) وشاهده في صورته العارية بالجزائر عندما بات من المؤكد ان الاستعمار القديم قد انتهى عمليا ، وان الحرب انما تستمر حرصا من الاستعمار على ايجاد مواقع جديدة له، وعلى تهيئة مستقبل مضمون لشكله الجديد ، وتهيئة المستقبل هذه لا يمكن ان تتم الا بالتخلص من القوى والعناصر الاكثر ثورية ، وكان تقلب فانون بين مهام متنوعة داخل الثورة قد مكنه من مشاهدة هذه الظاهرة عن كثب فتبين بوضوح طبيعة العلاقة العضوية بين الاستعمارين القديم والجديد والشبه العميق بينهما في اوجه الاستغلال وحتى في استعمال العنف احيانا .

اذا نحن انتقلنا الى فصل « العنف في الاطار الدولي » فاننا نجد هنا ايضا تأثير التجربة الجزائرية واضحا جدا . ويزداد التأثير هنا وضوحا ، لان لدينا نصين مختلفين من فانون ، حول مسألة « محاسبة الاستعمار على الماضي » احدهما يرجع الى ما قبل الثورة الجزائرية ، والثاني هو النص الموجود ضمن فصل « العنف في الاطار الدولي » وهذا يسمح لنا بأجراء مقارنة تظهر مدى التغيير الذي ادخلته الجزائر على تصور فانون لهذه المسألة .

في كتاب « بشرة سوداء ، أقنعة بيضاء » نجد ان فانون يقول لنا بصريح العبارة :

« هل سأطلب من الرجل الابيض اليوم ان يكون مسؤولا عن معاملة اسلافه للزنوج في القرن السابع عشر ، هل سأبحث بجميع الوسائل عن خلق

الشعور بالذنب من الارواح .. » « اني لا املك الحق في ان اترك نفسي تنزلق بحتمية الماضي » ففانون ما قبل الثورة يرفض كما رأينا ان يحاسب الاستعمار على ما فعله في القرون والاجيال السابقة . ولا يريد ان يعمل على ايجاد « مركّب » لدى الأبيض بسبب فعل أسلافه في الماضي .

لكن فانون في « معذبو الارض » يتخذ موقفا آخر مغايرا تماما لذلك فهو يقول عن العنف في الاطار الدولي :

« .. ان الدول الاستعمارية ترتكب خطأ فادحا وتقترف ظلما لا يوصف اذا هي اكتفت بأن تسحب من ارضنا قواها العسكرية واجهزتها الادارية والاقتصادية التي كانت وظيفتها اكتشاف ثرواتنا واستخراجها وتصديرها الى عواصم البلاد المستعمرة . ان التعويض المعنوي الذي يحققه لنا الاستقلال لا يعمينا عن الحقيقة ، انه لا يطعمنا من جوع ، ان ثروات البلاد الاستعمارية هي ثروتنا ايضا .

لقد اتخمت اوروبا ذهبا ومواد اولية من البلاد المستعمرة ، من اميركا اللاتينية والصين وافريقيا . فمن جميع هذه القارات التي تتيه عليها اوروبا بثرائها الضخم ، كانت تمضي منذ قرون الى اوروبا هذه الاحجار الكريمة والبترول والحرير والقطن والاخشاب والمنتجات المحلية ان اوروبا انما خلقها العالم الثالث . والثروات التي تتخم اوروبا اليوم انما سرقتها اوروبا من الشعوب المتخلفة [٧] ... » .

ان هذا التطور الواضح في موقف فانون من الماضي الاستعماري ، ومن محاسبة الدول الاستعمارية ، يرجع الى النقاش الذي فجره الصراع بين الاستعمار وقوى التحرر وخاصة النقاش الذي دار حول هذه النقطة ،

اثناء حرب التحرير الجزائرية بين الثورة الجزائرية والاوساط الفرنسية المختلفة ، اليمينية منها واليسارية •

وقد تولد هذا النقاش في نطاق اعادة النظر المطلقة في كل ما يتصل بالاستعمار حسبما تقتضيه طبيعة الثورة المسلحة في الجزائر التي طورت موقف الرفض السلبي للاستعمار قبل ١٩٥٤ — الى رفض ايجابي يعتمد على العنف المسلح •

وفي مواجهة اعادة النظر المطلقة هذه ، كان الاستعمار يدافع عن نفسه بجميع الوسائل فالى جانب استعمال العنف والقمع واساليب الابادة ، كان يحاول تبرير وجوده الماضي بأبراز ما يسميه « المنجزات الايجابية » •

وقد لوحظ ان اليسار الفرنسي ، في هذه القضية ، كان يتحدث لهجة لا تكاد تختلف عن اللهجة التي يستعملها اليمين الذكي • وليس يهمنا هو البحث من دوافع هذا الموقف بالنسبة لليسار • هل كانت تلك هي عقيدته ام انه كان يخضع لمتطلبات « التضامن الوطني » لانه كان يخشى ، في غمرة « الحمى الوطنية » التي جندت فرنسا كلها كرجل واحد ضد الشعب الجزائري، ان يفقد قواعده ويخسر بعض المقاعد الانتخابية، فالمهم ان الموقف كان واحدا تقريبا ، في هذه المسألة •

ونتيجة لذلك شاع الحديث في الكتابات الفرنسية ، سواء كانت يمينية تدافع عن استمرار الحرب ، او يسارية تطالب بالتفاوض • شاع الحديث عن الايجابيات التي حققها الاستعمار الفرنسي ، وسمعنا كثيرين يتحدثون عن الهياكل الاقتصادية وشبكات المواصلات والمدارس والمستشفيات الخ ••• التي اقامها الاستعمار الفرنسي بالجزائر • وقد ردت الثورة الجزائرية على ذلك بالكشف عن طبيعة الاستعمار الفرنسي ،

فكان ان صدرت عدة كتابات ذات طابع تاريخي للتذكير بالطابـع الابادي لحروب الاحتلال الاولى والكشف عن اوجه الشبه بينها وبين حرب اعـادة الاحتلال الاخيرة • وكان ان صدرت دراسات اقتصادية تفضح الطابـــع الاستغلالي للنظام الاستعماري ، وتقدم احصائيات مدققة عن مدى تدهور الحالة الاقتصادية للسكان وازدياد نظامهم المعيشي سوءا • كما صدرت تحقيقات عن تدهور الاوضاع الاجتماعية والصحية للسكـان الوطنيين ؛ وتكشف عن الوان الاضطهاد التي عمد اليها الاستعمار ، سواء قبل ١٩٥٤ او بعد ذلك ، لتجويع السكان ، وفرض الحصار الاقتصادي على المدائـن والقرى لمنع التموين عنها خشية ان يستفيد منه جيش التحرير ، كما وقـع الكشف عن نظام المعتقلات ومراكز الاحتشاد ، والمناطق المحرمة، التي مست ما لا يقل عن ستة ملايين من ابناء الريف •

وفي مقابل ذلك وضعت دراسات تكشف عن النهب الذي تعرضت له البلاد خلال قرن وثلث من الزمان ، وتوضح الحقيقة حول ما يسمونه « المنجزات الايجابية » للاستعمار ، تدفع النظر الى تجاوز المظاهر الطافية فوق السطح ، لتبين حقيقة المستفيدين من تلك المنجزات التي صنعت بعرق السكان الوطنيين ودمهم وثرواتهم ليفيد منها اجانب وشذاذ آفاق •

أن هذا النقاش الذي فجرته الثورة الجزائرية هو الذي نلمس آثاره واضحة في تطور موقف فانون حول هذه النقطة ، من « بشرة سـوداء ، اقنعة بيضاء » الى « معذبو الارض » •

ويكفي ان نلقي نظرة على مجموعة « المجاهد » التي صدرت خلال حرب التحرير ، لكي نتأكد من هذه الحقيقة : اذ نجد ضمنها اربعا وعشرين مقالا لها طابع تاريخي ، وخمسة عشر مقالا حول الاستعمار في الوضـــع

الراهن ، وخمسا وعشرين مقالاعن السجون ومراكز التجمع وسبعا وعشرين مقالا عن التعذيب ، وأثنين وثلاثين مقالا ودراسة ذات طابع اقتصادي .
وتجدر الاشارة هنا الى ان معظم الدراسات الاقتصادية كانت تشتمل على اظهار جوانب النهب في الاستعمار بشكليه القديم والحديث . كما كانت تلاحق المشاريع الاقتصادية الفرنسية الجديدة بالجزائر ، لتكشف عن طبيعة الاستغلال فيها ، مثل مشروع عنابة الذي خصصت له ثلاث دراسات تزيح الستار عن الارتباط الموجود بين هذا المشروع وبين الاستعمار الحديث ، وعن اوجه الاستغلال فيه .

لقد رأينا في مطلع هذا الفصل ، بعض العوامل التاريخية التي جعلت ثورة الجزائر تشتمل على ابعاد عالمية مؤكدة : من الطابع العربي ـ الاسلامي ، الى البعد الافريقي الى التفاعل مع العالم الثالث . وقد ظهرت هذه الابعاد بوضوح في كتابات الثورة الجزائرية ، فلا يكاد يصدر عدد من اعداد « المجاهد » او تصريح للهيئات القيادية ، دون ان يكون خاليا من التركيز على هذا البعد او ذاك من ابعاد الثورة .

وقد كان البعد الافريقي من اوضح هذه الابعاد واشدها ظهورا ، بسبب وجود عامل اساسي هو الاستعمار المشترك : كانت فرنسا ، عند قيام حرب الجزائر تسيطر على عدة بلدان في افريقيا الغربية والاستوائية . وقد حاول الاستعمار الفرنسي ان يستعمل جنودا افارقة في محاربة الشعب الجزائري من جهة ، كما حاول من جهة اخرى أن يحول دون قيام واجهات عربية أخرى ، حتى يتفرغ للقضاء على المقاومة الجزائرية .

وفي هذا المعنى نشر « المجاهد » مقالا في العدد ١١ الصادر في نوفمبر ١٩٥٧ جاء فيه على الاخص ما يلي :

« ان أخشى ما يخشاه الاستعمار هو ان يواجه في آن واحد حركتي تحرير • ولذلك يعمد ، كلما قامت حرب تحرير في جهة ما ، الى ارخاء قبضته في بلدان اخرى ، منعا لحركة التحرير ان تمتد اليها • وقد اصبحت حرب الجزائر هي الشبح الذي « يسكن » المستعمرات الفرنسية الاخرى• ولذلك قام جهاز الدفاع الاستعماري بتعبئة مجموع قواه المنبثة في انحاء الامبراطورية •

وقبل أن يواصل المقال تحليل التداخل الضروري والتضامن الحتمي بين شعوب المستعمرات يتعرض لنقطة اساسية ما انفكت الثورة الجزائرية تدافع عنها ، ضد النظرية التي كانت ـ وما تزال ـ شائعة عند اليسار الاوروبي ، وهي القائلة بوجود تضامن عضوي بين الطبقة البروليتارية في المستعمرات وبروليتاريا البلد المستعمر •

وقد كنا لاحظنا ، عند الكلام على المرحلة الاولى من مراحل التطور الفكري لفانون انه كان يأخذ بهذه النظرية ، مقتديا في ذلك بخط اليسار الفرنسي •

في هذا الصدد يقول المجاهد :

« •• في مواجهة هذا التكتيك الماهر الذي يضبطه الاستعمار الفرنسي ، يجب على شعوب الاقطار التي تحتلها القوات الفرنسية أن تضبط استراتيجية تضامن مشترك • واليوم يتبين لنا بوضوح عدم واقعية المذهب القائل بوجود تضامن عضوي بين الطبقة البروليتارية في المستعمرات وبروليتارية البلد المستعمر • والواقع ان النظرية المناهضة للاستعمار انما بدأت تتبلور اليوم ، في نفس الوقت الذي يتأكد فيه زيف

النظريات التي كانت معروفة حتى الآن • لهذا يتعين على الشعوب المكافحة من اجل استقلالها ان تعتمد على اشقائها المستعمرين (بالفتح) ، الا أن هذا التضامن بين المسحوقين ، لا يمكن أن يتم بصفة عفوية ، فالدعوة الى الاعتماد على هذا التضامن ليست دعوة الى الاتكال على الغير ، ولذلك يعقب « المجاهد » على ذلك بالتنبيه الى الحيل والعراقيل التي يضعها الاستعمار في طريق التضامن ، كما يحذر من الوقوع في الايمان الاعمى بالعفوية والتلقائية ، فيقول :

« أنه من أكبر الخطأ الاعتماد على تضامن عفوي وتلقائي ، فالاستعمار بكل ما يشتمل عليه من شر وفساد يصل الى اثارة البعض ضد البعض الآخر رغم ما يجمع بينهم من اضطهاد •• »

ثم يسوق المجاهد بعض الامثلة على ذلك :

« ان رجال افريقيا السوداء ، من دوالة ومن كوتونو ، من داكار ومن ابيدجان ، يجدون انفسهم اليوم في مواجهة شعبنا • بل ان الاستعماريين الذين لا يفزعهم اي منكر ، يعمدون الى تنظيم مسرحيات فظيعة تكشف عن مدى احتقارهم للانسان ، ومدى تصميمهم على دفع الجزائريين والداهوميين والسنغاليين الى الاقتتال •

والمجزرة التي سبق أن نظمت في عنّابة تنير اسلوبا من اساليب العمل اصبح اليوم منهجا يطبق في كل مكان ، ففي افريل ١٩٥٦ قتل ثلاثة جنود من افريقيا السوداء في اشتباك مع وحدة من جيش التحرير • أخذ الفرنسيون الجثث ومثلوا بها تمثيلا شنيعا ، ثم عادوا بها الى المعسكر • ثم زعموا لبقية الجنود الافارقة انهم اتصلوا بمعلومات تحدد حيا من المدينة انطلقت منه وحدة جيش التحرير التي نسبت اليها عملية التمثيل

بالافارقة بعد قتلهم . وما هي الا ساعات حتى كانت الشاحنات تقذف في الانهج الضيقة للحي مجموعات من الجنود الافارقة تلاحقهم صور رفاقهم الذين وقع التمثيل بهم ؛ واسفرت هذه العملية عن ثمانمائة قتيل من المدنيين الجزائريين . لكن جنودا افارقة ممن ساهموا في هذه العملية اكتشفوا الحقيقة بعد ذلك ففروا من الجيش الفرنسي والتحقوا بجيش التحرير الوطني .

وما حدث في البليدة خلال ديسبمر ١٩٥٦ حيث هوجم حي الغلاسير. وقنبلة مدينة تلمسان في جوان ١٩٥٧ يدل على ان هذا الاسلوب ما يزال مستعملا ضد شعوبنا لكن ضعف الاستعمار يتمثل في تناقضاته الداخلية . فعدد الافارقة الذين يرفضون القتال ضد اخوانهم الجزائريين يتزايد باستمرار ، ان أولئك الجنود الافارقة المشهورين باتقان الرماية يتعمدون اطلاق النار اعلى من رؤوس جنود وحداتنا ، وعندما يكلفون بتفتيش المشى او الدوار يكتفون بفتح الابواب دون تفتيش المنازل . وفي كثير من الاحيان سهلوا مهمة فرار مدنيين جزائريين من الاعتقال .. »

ويتدرج المقال بعد ذلك الى الكشف عن الطابع اللاتاريخي لموقف بعض المسؤولين الافارقة الذين كانوا يصدرون تصريحات تأييد للاستعمار الفرنسي .

وفي العدد ١٨ من المجاهد ، الصادر بتاريخ ١٥ فبراير ١٩٥٨ مقال آخر بعنوان « افريقيا السوداء امام الاستعمار الفرنسي » يتحدث عن البعد الافريقي للثورة الجزائرية ، كما يذكر بعض مظاهر تضامن الشعوب الافريقية والآسيوية مع الجزائر ، وجاء في فاتحة المقال ما يلي :

« ان الصحراء ، بدل أن تكون حاجزا يمنع الاتصال ، ظلت طوال

عهود التاريخ همزة وصل وملتقى مسالك سمحت بالمبادلات التجارية والثقافية ، وقد كانت تمبوكتو المركز الاسلامي الثقافي تجسيما لهذا اللقاء.

وغدا عندما تصبح شعوب افريقيا السوداء وشعوب المغرب العربي حرة : ستبعث الحياة من جديد في تلك الصداقة القديمة » .

وفي العدد ٢١ من المجاهد الصادر بتاريخ ١٦ افريل ١٩٥٨ مقال عن « وحدة افريقيا السوداء » بوصفها مرحلة اولى نحو الاستقلال .

وكتب المجاهد في العدد ٣٢ الصادر بتاريخ نوفمبر ١٩٥٨ مقالا بعنوان « الجزائر وافريقيا في مواجهة الاستعمار الاوروبي الحديث » ، تناول بالتحليل المشاريع الاقتصادية والتجارية الاوروبية في القارة الافريقية وذكر اسباب تجدد عناية الغرب الرأسمالي بالسوق الافريقية ولخصها كما يلي :

ـ لان بلاد الرب والولايات المتحدة الاميركية تريد ان تحتفظ في منطقة نفوذها ببلدان افريقيا الشمالية وافريقا الوسطى وافريقيا الغربية ، وذلك لاسباب استراتيجية .

ـ لان العالم الرأسمالي تعرف منذ عامين على احتياطي الثروات التي يزخر بها باطن الارض الافريقية من موارد منجمية وطاقوية : بترول وغاز الصحراء من جهة ، والبوكسيت والحديد والمانغانيز والفوسفات والنحاس والاورانيوم التي تملكها افريقيا الوسطى والغربية .

وبعد شرح ميكانيزم الاستغلال الذي وضعه الفنيون والساسة الغربيون ، يقدم موقف الثورة الجزائرية من مستقبل العلاقات التجارية والاقتصادية مع اوروبا والعالم فيقول :

« .. أن الجزائر لا تستطيع ان تقصر اسواقها على بلاد السوق الاوروبية المشتركة . انها تستطيع كما يستطيع المغرب وتونس ان تبرم ، خارج السوق المشتركة ، اتفاقات هامة مع شركات المانية وايطالية وحتى اميركية ؛ حيث يبدو ان هذه الشركات مستعدة لاستثمار رؤوس اموالها في البلاد الافريقية التي تتمتع بالاستقرار .

ولا تستطيع الجزائر ان تتجاهل بلاد حوض البحر الابيض المتوسط مثل اسبانيا ويوغوسلافيا واليونان . كما لا تستطيع ان تستبعد من ميدان مبادلاتها البلاد السكندينافية وانكلترا التي يمكن ان تقيم معها علاقات تجارية جديدة .

ولا تستطيع الجزائر كما لا تستطيع تونس والمغرب ، ان تتجاهل اوروبا الشرقية وخاصة آسيا التي هي مستعدة بواسطة الصين واليابان لتطوير مبادلاتها الاقتصادية مع المغرب .. »

وفي العدد ٨٧ الصادر بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٩٦١ ، فتحت المجاهد اعمدتها لشخصية افريقية كتبت مقالا بعنوان « طريق الوحدة الافريقية » جاء فيه على الاخص :

« ... أن الاستعماريين ينظرون الى بعيد ، فهم اذ يتبينون اليوم ان الشعوب الافريقية المكافحة مصممة على التخلص من القيود المفروضة ، يضاعفون المناورات من أجل ايجاد التفرقة ، ليس فقط داخل مجموعة وطنية واحدة ولكن ايضا من أجل زرع التفرقة على مستوى القارة ... »

أن ما نريد الوصول اليه من وراء عرض هذه الفقرات من كتابات « المجاهد » هو تأكيد البعد الافريقي للثورة الجزائرية وظهوره في كتاباتها . ويكفي ان نعرف ان عدد المقالات والدراسات والتعاليق التي

خصصت في المجاهد لافريقيا والعلاقة بين افريقيا السوداء والثورة الجزائرية ، بلغ خلال حرب التحرير ، ستا وثلاثين مقالا ودراسة يضاف اليها نحو عشرين مقالا ودراسة خصصت للعالم الثالث والحياد • وكل ذلك يكشف عن امتلاك الثورة الجزائرية لنظرة شمولية ، اخذت في اعتبارها الابعاد الخارجية المرتبطة بالثورة •

ومما زاد في تعميق انتماء الجزائر لافريقيا والعالم الثالث امران : الاول أن الجزائر عاشت خلال معركة التحرير انعكاسات هذا الانتماء ولمست ايجابياته ، كما شهدت فقط ضعفه •• والثاني ان الجزائر المكافحة من أجل استقلالها لمست بوضوح مدى التضامن الاستعماري الغربي وان مجاهدي جيش التحرير كانوا يتعرضون للموت بأسلحة لم تكن دائما فرنسية فقط • بل أن بعض عتاد الحلف الاطلسي الذي كان يعتبر آنذاك أحدث عتاد حربي ، قد استعمل في محاربة الشعب الجزائري على نطاق واسع •

أن التذكير ببعض حقائق التاريخ النفسي للشعب الجزائري وببعض كتابات الثورة الجزائرية ومواقفها فيما يتصل بمكانتها من حركة تحرر شعوب افريقيا والعالم الثالث يسمح لنا باكتشاف الحقيقة ، حول الاهمية التي كان الثوار الجزائريون يعطونها لكفاح افريقيا والعالم الثالث ويؤكد وعي الثوريين الجزائريين بمدى الروابط التي تربط بين طبيعة المعركة في الجزائر وطبيعة الصراع الدائر على صعيد العالم الثالث•

في هذا الاطار نستطيع ان نتبين حدود ما يقال من أن تأثير فرانز فانون في الثورة الجزائرية كان حاسما •

صحيح أن فانون قدم اسهاما هاما داخل هذه الثورة لكنه تأثر

بها وافاد منها في تطوير فكره • فقد وجد فيها تجربة عملية ، حية ، مكنته من تعديل الكثير من المفاهيم التي كان يحملها .والتصورات التي كـــان يعتـــدها •

خصوصا وأن الثورة الجزائرية ، بما استندت اليه من مهام في بـــلاد افريقيا السوداء قد أتاحت له فرصة الاطلاع على تجارب هـــذه البلدان ، والاحتكاك المباشر برجالها ، والمعاينة الصريحة لمشاكلها •

على هذا الاساس يمكن القول دون مبالغة ان كتاب «معذبو الارض» يعكس الكثير من تأثير الثورة الجزائرية في فكر فانون في نفس الوقـــت الذي يعكس فيه تطور الفكر الثوري عند فانون متفاعلا مع هذه الثورة ومع ملابساتها •

واذا كان يتعين علينا ان نهتم بفكر فانون ، وبشرح المساهمة التـــي قدمها الى قضية المسحوقين في الأرض ، واذا كان يجب ان نسجل شجاعة فانون وسخاء روحه واندفاعه في خدمة هذه القضية ، فلا يجوز ان ننسى الدور الذي لعبته الثورة الجزائرية في توجيـــه فانون تلك الوجهة •

لقد جذبت الثورة الجزائرية فانون نحوها ، واخرجته بقوة اشعاعها وصمود شعبها ووضوح خطها ، من الدائرة الفرنسية ، لتقذف به فـــي قلب الدائرة الجزائرية •

وسط هذه الدائرة تحرر فانون نهائيا من تأثير منطـــق واستنتاجات اليسار الفرنسي واستطاع لذلك ان يشهد حقيقة مدار الصراع الدائـــر في الجزائر •

وكشفت له رحلته من اليسار الاوروبي الى الثورة الجزائريـــة ،

عن حقائق جديدة تتصل بافريقيا ، تلك القارة التي ما انفك يشعر بالحنين اليها ، وفي نفس الوقت تكشفت له حقائق اخرى تتصل بالعالم الثالث الذي يشمل فيما يشمل مسقط رأسه في جزر الانتيل . لقد فتحت له هجرته هذه لليسار ، آفاقا جديدة ، على صعيد العالم الثالث ، فمضى في رحلته ، مكتشفا لا يكل ، مصمما على ان لا يرجع ابدا الى نقطة الانطلاق .

وفي ذات يوم ، من ربيع ١٩٥٧ في مكان ما من باريس كان فانون ينتظر تسهيل مروره ليلتحق نهائيا بالثورة الجزائرية .

وكان ذلك آخر عهده بفرنسا ويسارها : لقد كان مسافرا دون عودة.

---

(١) فانون . معذبو الارض . الطبعة العربية . ص ٦٦ .
(٢) نفسه . ص ١٢١ وما بعدها .
(٣) نفسه . ص ١٢٥ .
(٤) نفسه . ص ١٣٢ .
(٥) فانون . معذبو الأرض . النص الفرنسي . ص ٨٦ (الطبعة الثانية) . لا نعتمد هنا على الترجمة العربية لاننا لاحظنا بأن عبارة « الحركية » قد سقطت من الترجمة العربية ، في حين ان لها دلالة تختلف عن دلالة عبارة « المصاليين » .
(٦) مصطفى الاشرف . الثورة الافريقية . عدد ٤٦ الصادر بتاريخ ١٤ ديسمبر ١٩٦٣ .
(٧) فانون . معذبو الأرض . الطبعة العربية . ص ٨٥٥ .

فهرست

سحب الطباعة الشعبية للجيش

صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع


ISBN : 978-9947-